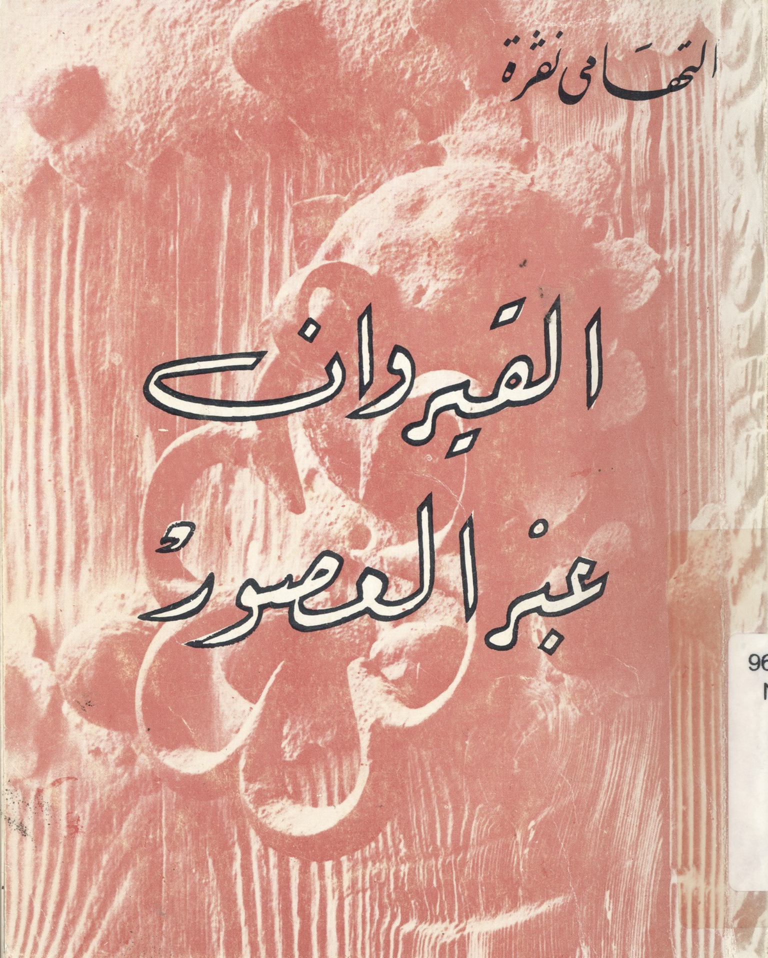

التهامي نقرة
القيروان
عبر العصور

تمثل صورة الغلاف باباً عتيقا لضريح الامام سحنون

التهامي نقرة

القيروان عبر العصور



لقد رحبت بهذا الكتاب القيم يوم اتصلت به ، وكتب لى الحظ الصاعد والجد المساعد أن أكون أول قارىء له ، حيث سلم الى مخطوطا ٠

فوجدته كتابا ثريا واضحا ، سهل العبارة ، بديع الأسلوب ، محكم التسلسل ، عميق البحث ، يستفيد منه الشادى ٠ ولا ينبو عنه المتم ٠ وقد كتبه مؤلفه الفاضل بنية صادقة ، وغوص ملح ، وخطة محكمة ، وحب للموضوع ٠٠

ويجب للحق أن نقول . ان القيروان عاصمة وأكثر من عاصمة ! فهى أم ، ومدينة المدائن عز لاسلام ــ كما كتب على بابها ، وكما يقرأ فيه الى الآن ٠

كانت عاصمة افريقية والمغرب ، والحوض الغربى من البحر المتوسط ، وعاصمة العروبة والاسلام فى هذه الأصقـــاع ٠ جمعت الحضـارات الاسيوية من فينيقية وعراقية وحجـازيـة ويمنيـة وايرانية وهنـدية وصينية ٠ وجمعت الحضارات الافريقية من بربرية ومصرية وسودانية ٠

وجمعت الحضـارات الاوروبيـة مـن رومانيـة ويونـانية وبيزنطية وأندلسيـــة

ونقلت الى لغة العرب أهم تصانيف البونيقيين والبربر والرومان ،

درست لسان العرب كما درست لسان البربر واللغات السامية وعلمت التفسير والحديث والقرآت والفقه والتصوف والمذاهب المقارنة ، كما علمت النبات والحيوان والأحجـــار والطب والصيدلة والفلـــك والكيمياء ! واهتمت بالزراعة كما اهتمت بالصناعة ، واعتنت بتجارة الصحراء الكبرى كما اعتنت بتجارة البحار القريبة والبعيدة من بحر

نيطس ومانيطس ، وبحر هدريان ، وبحر الروم ، والبحر الاخضر ، وبحر الشمال • وكان أدباؤها يمتازون بالجودة والتنـــوع وحسن الأسلوب وسمو الذوق والاستبحار •

وكانت فنونها هي خلاصة فنون الفرس والبيزنطيين والكنعانييـن والبربر مع ما أدخله عليها التهذيب والذوق الافريقي السامي •

وكان معمارها نقطة الانطلاق لمعمار جديد ، نجده في جامع ابـن طولون بالقاهرة ، وفي الجامع الأموى بقرطبة ، وفي جامع بالارم • كما نجده في كنائس سان جان دى كومبو ستيل ، ولوبوى ، وفين لى ، بفرنسا ، وحتى كنائس المكسيك •

فمدينة هذه زبدة مدنيتها ، وهذا مبلغ اشعاعهـــا العلمى والفنى والادبى والمعمارى ، لحرية بأن يقبل الناس على دراسة تاريخها ، وبأن يرحب بكل كتاب قيم يصدر عن تاريخها •

وهكذا كان شأننا عندما طالعنا هذا الكتاب بشوق ومتعة ، وعين قريرة ، وصدر مثلوج •

على أن ما ألف في تاريخ القيروان كثير ، ولكن ما وصلنا منه قليل • فهو قطرة من يم ، ونزر من جم •

أين كتب العهد الأغلبى التى ألفها سليمان ابن أبى المهاجر ، ومحمد ابن سحنون ؟

وأين كتب العهد الفاطمي التى ألفها القاضى النعمان والطبيب ابن الجزار ، ويوسف الوراق ؟

وأين كتب العهد الصنهاجي التى ألفها أبو العرب ، والمـالكى ، واللبيدى ، والشيرازى ، والطبرى ، والتجيبى ، وابـن سعـدون ، وابن رشيق ، وابن شرف ، والرقيق ، وابن غريب الصنهاجي ؟

وأين معالم المدينة نفسها ؟ أين قصورها ، وأسواقها ومبانيها ، وأسوارها ؟

وأين المدن الأميرية التى كانت حولها المنصورة والعباسية ورقادة ؟

وأين الكتب والتحف والذخائر والقطع الفنية ؟

وأين دواوين الشعر والملاحم والمعاجم ، وتصانيف الأدب والعلوم التى نعرفها من خلال تراجم العلماء والأدباء ؟

فاذا ما جاء مؤرخ وأعاد الى ذاكرتنا أخبار هذه الحضارة وروى لنا أحاديث هذه الأمجاد ، وصور لنا رسوما واضحة عن معالمها ، وأتى لنا بآيات بينات عن تأثيرها فى الحضارة الأوروبية ، فكأنما رسم ومشق وأتقن لنا صورة حية من هذه الحضارة القيروانية !

فنحن نشكر صنيعه ، ونبارك مجهوده ، وننوه بعمله ، ونحمد الله على أن الرسالة مستمرة ، اذ قيض من شباب الجيل من يهتم ببنـاء المستقبل الزاهر بقدر ما هو يعتنى بتجلية ملامح الماضى الغابر ، حتى تكون حضارتنا فى الغد امتدادا وتحسينا لحضارتنا بالأمس ، وحتى نكون غدا حاملى مشعل الحضارة والعلوم والفنون ، كمـا حملنـاه بالأمس عاليا ..

عثمان الكعاك

فتح افريقيـــة

قال المسور بن محرمة : خرجت من منزلى بليل اريد المسجد ، فاذا عثمان بن عفان فى مصلى النبىء صلى الله عليه وسلم • فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا طويلا حتى اذن المؤذن ، ثم قام منصرفا الى بيته ، فقمت فسلمت عليه ، فقال : يا ابن محرمة ! انى استخـرت الله فى بعـث الجيوش الى افريقية • فما رايك ؟ قلت : خار الله لأمـير المـؤمنين • اغزوها • قال : اجمع لى أصحاب رسول الله حتى أستشيرهم • فما أجمع عليه أكثرهم فعلته • ولتكن أنت رسولى اليهم واحضر معهـم • وبعد ان استوثق عثمان رايهم خطب الناس ودعاهم الى غزو افريقية •

فخرج فى سنة 27 هـ عشرون الفا من الصحابة والتابعين يقودهم عبد الله بن أبى سرح ، وقطعوا مفاوز برقة وطرابلس ثم دخلوا افريقية ونزلوا بالقرب من مدينة سبيطلة مقر ملك الروم « جرجير » • ولما علم الخبر خرج اليهم فى مائة ألف من الروم والبربر ، والتقى الجمعان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتهت بقتل جرجير ، وتشتيت جموعه ، وركونهم الى الصلح • وعندئذ أرسل أمير الجيش الى الخليفة عثمان بن عفان يبشره بما فتح الله على المسلميـن فى افريقيـــة • وكان رسوله اليه عبد الله ابن الزبير • فوصل المدينة المنورة ، وقص الخبر على الخليفة • فقال له : يا بنى ! اتقوم بمثل هذا الكلام فى الناس؟ فقام ابن الزبير فى الناس خطيبا وقال بعد أن حمد الله واثنى عليه :

ايها الناس ! انا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع وال حفظ وصية امير المؤمنين ، كان يسير بنا للابردين ، ويخفض بنا فى الظهائر ، ويتخذ الليل جملا • يعجل الرحيل من المنزل الجدب ، ويطيل اللبث فى

الخصب ، فلم نزل على احسن حالة نعرفها من ربنـا حتى انتهينـا الى افريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ، ورغـاء الابـل ، وقعقعة السلاح • فاقمنا اياما نريح كراعنا ونصلح حالنا ، ثم دعوناهم الى الاسلام ، فابعدوا عنه ، فسألناهم الجزية عن صغار ، فكانت هذه أبعد ، فاقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة تختلف اليهم رسلنا • فلما ايسنا، قام اميرنا خطيبا فينا ، فذكر فضل الجهـاد ومـا لصاحبـه اذا صبر واحتسب • ثم نهض بنا الى عدونا فقاتلناهم اشد القتال يومنا ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما اصبحنا أخذنا مصافنا فزحف بعضنا الى بعض ، فافرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة وفيئا واسعا »

وبعد هذا الفتح عاد عبد الله بن ابى سرح الى مصر بعد أن أقام بافريقية سنة وشهرين •

وتعرف هذه الغزوة بغزوة العبادلة لمشاركة سبعة من الصحابة فيها اسمهم عبد الله • وهم : عبد الله بن ابى سرح ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمرو •

ثم لما استقر الامر لمعاوية بن ابى سفيان ، سير لغزو افريقية جيشا بقيادة معاوية بن حديج الكندى ، سنـة 45 • ففتح سوسة وبنزرت وجلولا ، وبعث جيشا فى البحر الى صقلية فاستولى عليها • ثم قفل راجعا الى مصر فاولى معاوية عوضه عقبة بن نافع الفهـرى وقـد ذكر ابو العرب « ان معاوية بن حديج غزا افريقية ثلاث غزوات • اما الاولى فسنة 34 • وهذه لا يعرفها كثير من الناس ، واما الثانية فسنة 45 • وأما الثالثة فسنة 50 •



ـ مدخل ضريح ابى زمعة البلوى
أحد أصحاب رسول الله الذين بايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة
خرج مع رجال معاوية بن حديج وغزا افريقية واستشهد بجلولة سنة 34 ودفن بالقيروان

تخطيط القيـروان

لما عاد ابن حديج الى مصر انتقض اهل افريقية بعـد أن سكنـوا لطاعته . فسير لهم معاوية بن ابى سفيان جيشا يضم عشرة آلاف بقيادة عقبة بن نافع الفهرى . ففتح فى طريقه الكثير من حصون الروم حتى وصل الى موضع القيروان ، وكـان فيـه حصن للـروم يسمى « قمونية » فاستشار رؤساء جنده وقال : أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا مدينة تجعلونها معسكرا . فاجـابوه لرغبتـه ، وقـال بعض اصحابه : قربها من البحر ليكون اهلها مرابطين ، فقال لهم : انى اخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ، ولكن اجعلوا بينها وبيـن البحر ما لايدركه غزاة البحر ، وقربوها من السبخة . فقالوا انخاف أن يهلكنا بردها فى الشتاء ، وحرها فى الصيف . فقال : لابد لى من ذلك لان اكثر دوابكم الابل ، وقد رايتم تنصر البربر ، ونحن اذا فرغنا من هذا الامر ، لم يكن لنا بد من الجهاد ، فتكون ابلنا على باب مصرنا فى مأمن من غارة البربر والروم . فاتفق رأيهم على ذلك .

وكان اول ما اختطه فيها المسجد الجامع ودار الامارة ، ثم أخذ الناس يبنون المساكن : حتى انتشر فيها العمران ، وشدت اليها المطايا من كل مكـــــان .

ويرى ابن خلدون أن العرب لم يراعوا حسن الاختيار فى تخطيط المدينة فهو يقول : « انظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان ، كيف لم يراعوا الا مراعى ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار . فلاول وهلة من انحلال امرهم اتى عليها الخراب والانحلال »

لكن الحقيقة أن العرب لم يقصر نظرهم عند اختيار موضع المدينة على مراعاة ابلهم كما ذكر ابن خلدون . ولكنهم راعوا فى الطليعة حسن موقعها الحربى لبعدها عن خطر البحر وغارات الاسـاطيل الرومانيـة

المفاجئة . ولقد أقام ولاة افريقية ومن اتى بعدهم من الملـوك عصورا طويلة ، ولم يفكر أحد منهم في الانتقال عنها الا لاسباب سياسية حتى غدت معهد الحضارة والمدنية . فهذا ابن حوقل يقول فى وصفها عندما زارها فى منتصف القرن الرابع .

« القيروان أعظم مدائن المغرب وأعظمهـا تجـرا وأكثرهـا امـوالا واحسنها منازل واسواقا »

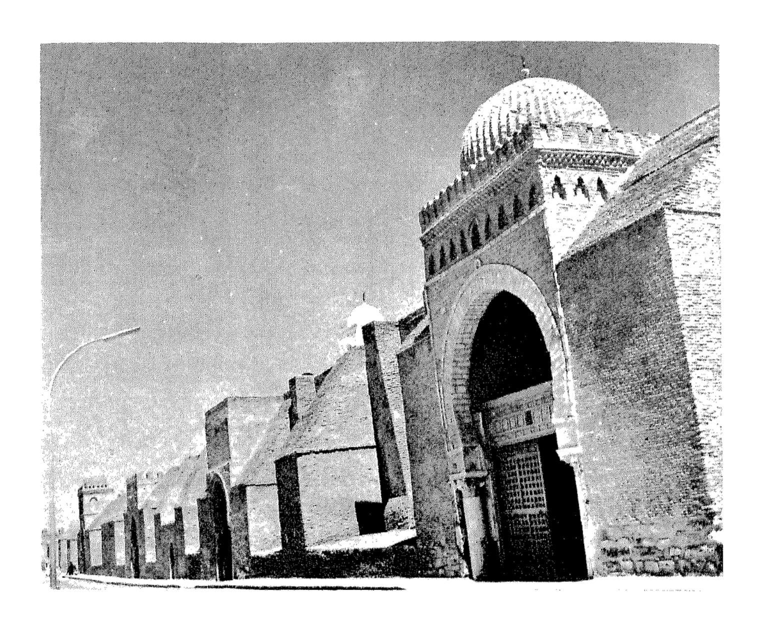
ويذكر البكرى أنه كان لمدينة القيروان أربعة عشر بابا وكـانت سوقها تمتد على طريق تبدأ من الجامع ، وتنتهى الى باب أبى الربيع فى جنوب المدينة . وكان طول هذا الطريق ميلا وثلثين ، وبه جميع المتاجر والصناعات ، وقد أمر بتنظيمه هشام ابن عبد الملك ويـذكر الـدكتور احمد فكرى أن مدينة القيروان تحتفظ منذ تلك السنـة بصورتهـا ونظامهـا .

وروى ان ابا عبيد الله المهدى لما افتك الملك من الاغالبة ،ودخل القيروان ، اثار اعجابه ما وجده فيها من نهضة ، ومن معالم تدل على رسوخ الحضارة فيها . فقـال « انى لم ار قط بالمشرق ما شاهدتـه بالقيـروان » ثم ان التنقيب عن الآثار حـول القيـروان كشـف عن حفريات فيها آثار ومقابر رومانية ، تقيم الدليل على ان الرومان قد استوطنوا تلك المنطقـة .

والمعروف عن الرومان انهم كانوا لا يستوطنون غير الاماكن الخصبة التى يتوفر فيها الماء والكلأ ، وينتشر حولها العمران .

ولما اتخذ المسلمون الفاتحون مدينة القيروان عاصمة المغرب ، تعاظم شأنها ، واستبحر عمرانها حتى أن سورها الذى جدد بناءه المعز بن باديس سنة 444 ، بلغ تكسير دائرته نحو اثنى عشر ميلا .

كما انتشرت حولها المدن : كرقادة ، وجلولاء ، وصبرة ، والعباسية والقرى كالمنية ، والحصر ، وزرود ، وقلشانة ، وبنى تميم . وكلها آهلة معمورة .



- جـامع عقبـة

هو أقدم أثر اسلامي في المغرب العربي اسسه عقبة بن نافع الفهـري عندما غـزا بجيوشه افريقيـة سنة 50

ثم اعيد بناؤه مرات متتالية ، خصوصا في عهد حسان بن النعمان ، وزيادة الله الأغلبي. ولم يبق مما بناه عقبة الا المحراب الداخلي . وقد ثبت ان نظامه اليوم يطابق ما اختطـه عقبة . يبلغ طوله 135 م ، وعرضه 80 م

وللجامع سبعة أبواب واهمها باب شرقي يدعى باب ريحانة . ومدخله مزخرف بأعمدة جميلة . كما توجد فوق الجامع سبعة قباب . اهمها قبة المحراب . وقد بناها زيادة الله ، وشكلها فريد لم يسبق اليه اما الأعمدة التي اقيم عليها ، فقد جلب جلها من المعـالم الرومـانية والبيزنطية

عاصمـة افـريقيـة (1)

منذ تأسيس القيروان سنة 50 الى انتصاب الدولة الاغلبية سنة 184 كانت السلطة في افريقية بيد ولاة يعملون بامرة الخلفاء الامويين ثم العباسيين من بعدهم • ويقيم الوالي بدار الامارة بالقيروان • وتقتضي وظيفته الاشراف على سير دواوين الجند والخراج والرسائل وغيرها • وتعيين عمال لادارة جهات البلاد • وكانت بافريقية خمسة اعمال • وهي تونس ، وقسنطينة ، وبلاد الجريد ، وطرابلس ، والمغرب الاقصى •

وقـد تولى الحكـم في هذا العهد ، ما يزيد على الثلاثين واليا من اشهرهم موسى بن نصير الذي أذن لطارق بن زياد بفتح الاندلس ، ثم جعلها بعد فتحها ولاية تابعة للقيروان •

وفي خلافة هارون الرشيد طالب أهل افريقية بتولية ابراهيم بن الاغلب أميرا عليهم ، فنفذ رغبتهم التي صادفت هوى من نفسه ، وكتب الى ابراهيم العهد بالامارة على ان يدفع هذا خراجا سنويا للخلافـة ، وبذلك استقلت القيروان داخليا • وكانت مدة حكم الاغالبة مائة واثني عشر عاما تعاقب فيها على الحكم أحد عشر ملكا من ابنـاء ابراهيم بن الاغلب مؤسس الدولة الاغلبية •

ولما دالت دولة الأغالبة سنة 297 انتصبت الدولة العبيدية وتولى خلافتها أربعة دامت مدتهم 65 سنة • وقد بقيت القيروان في الاحدى عشرة سنة الاولى عاصمة للدولة ثم نقلها عبيد الله المهدي الى المهدية لما كان يتوجس من مقاومة أهل القيروان لمذهبه الشيعي •

ثم لما استتب الامن باخماد ثورة « صاحب الحمار » بنى المنصور مدينة تبعد عن القيروان نصف ميل وسماها « المنصورية » واتخذها قاعدة

---

(1) افريقية كان يستعملها العرب فيما يشمل المغرب الادنى والاوسط ، فتشمـل طرابلس وتونس والجزائر

لحكمه وذلك سنة 336 • ثم اتخذها بعض أمراء صنهاجة مقرا للحكومة حتى زحف عليها أعراب الصعيد سن مصر سنة 444 فانطمست مبانيها وقصورها ، ولم يبق منها اليوم سوى الموضع وبعض الانقاض •

وهكـذا كانت القيروان سنـة 95 عاصمة الاسلام الاولى لافريقية والاندلس ، كما كانت مركزا حربيا للجيوش الاسلامية وموطنا لبث اللغة العربية ، ونشر الاسلام بافريقية التى دخلها كثيرون من اصحاب الرسول ، أمثال عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمان بن ابى بكر الصديق ، وابى ذر الغفارى ، وابى زمعة البلوى ، ورويفع بن ثابت الانصارى وغيرهم •

وفى عصر الاغالبة امتد نفوذ القيروان بوصفها « العاصمة » الى برقة وطرابلس ، وقسنطينة ، والى الجزائر المنقطعة عن سواحل بحر الروم « البحر الابيض المتوسط » : مثل صقلية ، وسردانيـا ، ومالطـة ، وقبرص •

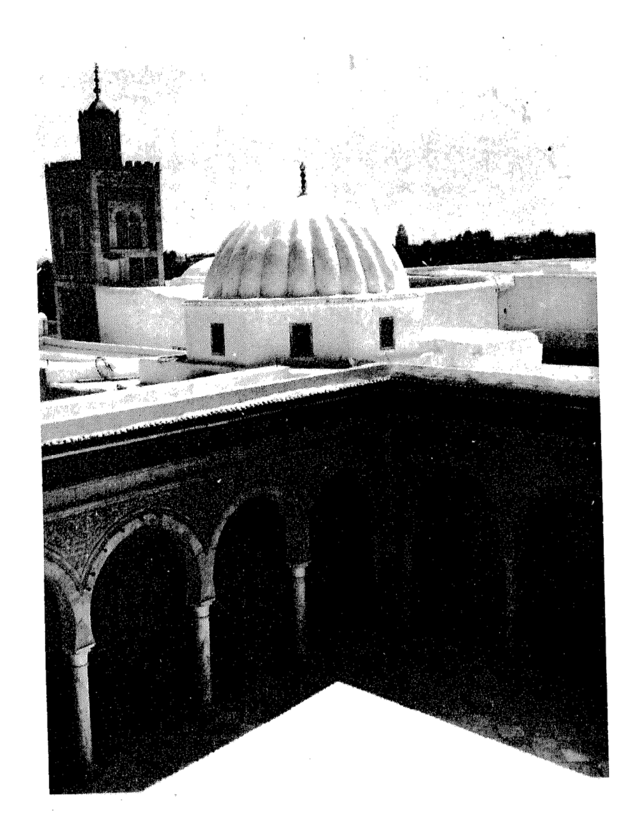
فبلغت بذلك شأوا بعيدا فى الحضارة والعمران ، بمن توافد عليها من العرب وغيرهم ، وبما شيد فيها من المبانى والمنشآت الحضرية ، وبما انشىء حولها من البرك التى جلبت اليها المياه من الشريرة وجلولا

ذكر عبيد الله البكرى : انه كان للمدينة تسعة وأربعـون حمامـا عموميا وزهاء ثلاثمائة مسجد •

وكان بسورها الذى يحيط بها من كل جانب أربعة عشر بابا ، من أشهرها : باب ابى الربيع بين القبلة والشرق ، وفى شرقيـه باب نافع • وفى جوفيه باب تونس • وفى غربيه ، باب سلم

كما كان للمدينة سبعة محارس ، وقد اندثرت كلها ، كما اندثرت القصور الاغلبية بالمدينة كقصر ابى الفتح ، وقصر الماء ، وقصر حمص

وبعد تخريب القيروان وسقوطها كعاصمة سياسية سنة 449 هـ اخذت تونس تحتل مكانة ممتازة ، ولكن القيروان ظل اشعاعها الروحى قائما خلال القرون ••



ـ منظر عام للزاوية الصحابية
وقد كان الضريح فى حوطة بسيطة ، فاسس القبة والصحن حمودة باشا المرادى سنة 1085 هـ . ثم بنى محمد بن مراد قبة الهواء والصومعة والمدرسة سنة 1095 هـ

عصر الوُلاة

(50-185هـ)

ثـــورات البـــربـــر

كـانت افريقية قبل الاسلام مطمحا لانظار الفاتحين من مختلـف الاجناس ، ومسرحا لاحداث عظيمة خطرة ، وحروب طويلة داميـة ٠ فـابتـلى سكـانهـا البربـر بعـدم الطمـأنينـة والاستقـرار ، اذ أن الثورات التى نشبت فى انحاء بلادهم ، والمظالم التى سلطها عليهم الغاصبون فى فترات متعددة ، جعلتهـم لا يركنـون الى الراحـة الا ليتحفزوا للثورة ٠

فليس غريبا حينئذ أن يستغرق الفتح الاسلامى لافريقية ما يزيد على نصف قرن بذل فيه المسلمون من الضحايا ، ولاقوا من أهوال البربر وانتقاضاتهم ما دفع بعقبة الى القول : « ان أهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم ، اذا عضهم السيف اسلموا ، واذا رجع المسلمون عادوا الى عاداتهم وتقاليدهم »

قال سليمان بن عبد الملك يوما الى موسى بن نصير : اخبرنى عن البربر ٠ فقال : « هم اشبه العجم بالعرب ، لقاءا ونجدة وفروسية وصبرا ، غير انهم لا وفاء لهم ولا عهـد » ٠

ومن انتقاضات البربر مهاجمتهم لعقبة واصحابـه اثناء عـودتهم من جبال أوراس ٠ ثم زحفهم على القيروان فى جيش كبير يقوده كسيلة وقد عجز الجيش العربى عن صده ، فخـرج من القيروان واخـلاها من الحامية وانسحب مع امير القيـروان « زهيـر البلوى » فانتصب بها كسيلة ، وأمن المسلميـن ٠

ولماجاء المدد منالشرق زحف زهير بجنوده علىالقيروان ٠ وبعدقتال عنيف ، قتل كسيلة وانهزم جيشه ، وأنقذ المسلمون عاصمتهم ٠

وعندما بويع عبد الملك بن مروان بالخلافة ، عزم على خضد شوكة البربر ، وكانوا قد التفوا حول زعيمة بربرية تدعى (الكاهنة) دعت الى تخريب المدن والقرى،وطمس العيون والآبار،وتقليع الاشجار،ظنا منها ان ذلك يزهد العرب فى بلادها٠وقد فعلت ! ولكن عبد الملك ارسل اليها جيشا ضخما يبلغ زهاء الاربعين الفا بقيادة حسان ابن النعمان الغسانى٠فالتقى الجيشان بالجم ، واشتبك القتال بينهما عنيفا لم تخمد ناره الا بقتل الكاهنة وانهزام جيشها وذلك سنة 85 هـ ٠

ولما استتب الامن اعتنى حسان بالناحية العمرانية فانشأ بالقرب من قرطاج مصنعا لانشاء السفن ، ودون الدواوين باللغة العربية، ووزع الاراضى على صغار الفلاحين من البربر ، وعين ابنى الكاهنة بعد اسلامهما قائدين فى الجيش العربى٠وبذلك استمال قلوبهم ، وأقام لهم الدليل على أن كل من يدين بالاسلام يكون له ما للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات ٠

وعلى هذا المنهاج القويم سار بعض ولاة افريقية مع مسلمى البربر حتى اخلدوا الى الطاعة ، واندمجوا فى الامة العربية وكادت تهدأ افريقية من الثورات ، لو لا ما تسرب اليها من سموم الانقسامات المذهبية ، والخلافات السياسية التى انتابت المشرق ٠

وقد اغتنم البربر فرصة الخلاف لاثارة الشغب من جديد ، والعودة الى ما ركب فى طباعهم من بغض الدخيل والانتقاض عليه مهما كانت سياسته ٠ فتمسكوا بمذهب الخوارج وشقوا عصا الطاعة فى وجه الوالى حنظلة بن صفوان ، والتفوا حول زعيم هذه الحركة عكاشة الصفرى ولكن حنظلة استطاع أن يهزمه ويشرد اتباعه ٠ وقد ذكر بعض المؤرخين أنه لم تعرف بافريقية معركة أشد من هذه ٠ اذ بلغ فيها عدد القتلى مائة وثمانين الفا وذلك سنة 124 ٠

وفى تلك الاثناء خرج عبد الرحمن بن حبيب الفهرى احد احفاد عقبة بن نافع وجمع حوله ثوار البربر ودخلوا القيروان عنوة ، واعلن ابن

حبيب الولاية لنفسه فاصبحت السلطة بيد الجنود الفهريين ، وأجبر حنظلة بن صفوان على الرحيل الى المشرق حتى انتقلت الخلافة الاسلامية الى العباسيين ، فارسل ابو جعفر المنصور محمد بن الاشعث فى اربعين الفا لانقاذ افريقية ٠

ولعل من افدح الاخطاء التى سجلها البربر على العرب ، فاستضعفوا أمرهم ، ما حدث عندما عزل معاوية عقبة ، وأولى مسلمة الانصارى مصر وافريقية ٠

فقد روى ابن ابى دينار : انه لما وصل مسلمة الى مصر ، بعث الى افريقية مولى له يعرف بابى المهاجر دينار ٠ فلما وصل استخف بعقبة وبأعماله ، وكره ان ينزل فى البلد الذى اختطه عقبة ٠ فبعد عن القيروان بعد أن أخلاها ٠ وبنى مدينة أخرى وأمر الناس بعمارتها ٠

انه لمن سوء التدبير اقدام ابى المهاجر على هذا الصنيع ، واساءته لسلفه فى بلد لم تثبت فيه بعد اقدام الفاتحين !

وكما قال الخضرى : ان هذا لمن الخلل القديم الذى يئن منه المسلمون الى اليوم ٠ فان الخلف عوض ان يستعين بآراء سلفه وتجاربه ، يجتهد فى تصغيره وتحقيره حتى ينطفىء اسمه ، ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ٠

وهو تفكير انانى عقيم ، لا يمكن ان تنجح به امة او تسود ٠٠ !

ومن أشهر ولاة افريقية فى هذا العهد :

عبيد الله بن الحبحاب الذى بنى جامع الزيتونة بتونس سنة 116

ويزيد بن حاتم المهلبى الذى جدد بناء جامع عقبة ورتب اسواق التجارة فى القيروان ٠ وافرد لكل صناعة مكانا خاصا وذلك سنة 157

ومن اخباره انه مر يوما فى طريقه بضواحى القيروان ، فراى غنما كثيرا ، وعلم انها لابنه فزجره عن اتخاذها حتى لايزاحم الناس فى اسباب التكسب ، وقطعا لكل جور يتوقع ، وامر بذبحها ، واباحها للناس ٠

وهرثمة بن أعين الذى انشأ قصر الرباط بالمنستير سنة 180



– قصر الرباط بالمنستير – القسم الذى بناه هرثمة سنة 180 هـ

– وبهذا لرباط ثلاثة قصور ذات طبقات تشتمل على مئات من البيوت ، ياوى اليها المرابطون من النساك ، حيث كانت فكرة الجهاد الدينى هى التى كانت تنظم تلك الحراسة وقد بنى الرباط بالحجارة ، ويحيط به سور منيع وبنيت فى وسطه مخازن الطعام ومواجل الماء ، ومستودعات آلات الحرب ومرابط الخيول .

الحركة الدينية فى عصر الولاة

لم يقدم المسلمون الفاتحون من جزيرة العرب الى هذا القطر الا لغاية مثلى ، هى أن يحولوه الى قطر دينه الاسلام ، ولغته العربية • وقد تم هذا التحول فى بطء وبعد أحداث خطيرة ، اذ ليس باليسير الهين أن تمحى من القلوب عقيدة لتحل محلها عقيدة جديـدة ، ولا أن تصرف الالسنة عما اعتادته من لغات ولهجات الى العربية ، وتجعل منها لغة تخاطب ولغة فكر •

ولئن كان تحويل الجزيرة العربية الى الاسلام شاقا عسيرا فـان تحويل المغرب اشق واعسر وذلك لبعده عن قلب الدولة الاسلامية •

لقد حدثنا التاريخ عن انضواء جماعات البربر فى أوائل الفتح تحت راية الاسلام ، ومشاركتهم العـرب فى فتوحاتهـم للمغـرب الاقصى والاندلس ، ولكن الاحداث كشفت أن جلهم لم يعتنق هذا الدين ، ولم يساهم فى الفتح الا طمعا فى الغنيمة أو فرارا من الجزية ، أو اعجابا مجردا بالفاتحين الدعاة أهل الدولة •

نقل عن عبد الله بن ابى زيد « أن البربـر ارتـدوا اثنتى عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم الا على يد موسى بن نصير سنـة 95 » .

ولما قتل الخليفة عثمان بن عفان ، ونشب الخلاف بين علي ومعاوية ، وتصادمت احزاب الزبيريين والعلويين والامويين والخوارج ، اصبحت افريقية فى هذه الفترة موطنا للعرب الناقمين على السياسة الاموية من الشيعة والخوارج ، وكان للاضطرابات القائمة بالمشرق امتداد وتأثيـر على بلاد المغرب اذ صارت مهدا لحركات كثيرة ، ولدعوات متطرفة كادت تخرج الاسلام عن حدوده ، كحركة خالد بن حميد الزناتى ، وعاصم الخارجي وغير ذلك من الفتن التى أثارها البربر فى القـرن الثـانى للهجرة ، والتى يستروح منها أن البربر حينما دخلوا فى الاسلام ، لم

يتشبعوا بمبادئه ، ولم يفهموه فهما صحيحا ، لذلك نراهم ينساقون لكل داعية ، وقد وجد الدعاة من تأييدهم ما شجعهم على غرس بذورهم ونشر دعوتهم. ثم لما استقرت الاوضاع وانتهت الفتوحات ، تاق البربر الى تفهم الدين ، وتعلم لغته ولكنهم لم يجدوا من الدولة الاسلامية ما يدل على عنايتها بهذا الامر ، ما عدا عمر بن عبد العزيز الذى ارسل الى افريقية عشرة من التابعين ليعرفوا الناس بأمور دينهم . ولم يجدوا من العرب المستقرين بافريقية أو الوافدين اليها الا دعاة لهم نزعات مذهبية أو اطماع سياسية ، أو بسطاء فى الراى لا تقوى مداركهم على انارة السبيل لرواد المعرفة والعلم . لان اكثر الراسخين فى العلوم الدينية ممن قدموا افريقية فى اول الفتح لم تمكنهم ظروف الحياة القلقة من الاستقرار الذى هو عنصر اساسى لنشر التعاليم الاسلامية على أوسع مدى ، حتى تكونت فى القرن الثانى نخبة حملوا المشعل ، وتجشم الكثير منهم مشاق السفر الى الشرق ودرسوا اصول الشريعة على ايمة رسخت اقدامهم فى الدين ، أمثال عبد الله بن عمر ، وابى هريرة ، وانس من مالك، وسفيان بن عيينه ، ثم عادوا الى مدن افريقية كالقيروان وتونس ، يعلمون الناس ، ويرغبونهم فى الدراسة والتوسع وبذلك انجبوا من حولهم طبقة من الفقهاء والمحدثين كان لهم الاثر الفعال فى نشر حركة علمية نشيطة فى افريقية .

ومن اشهر اعلام الاسلام الذين دخلوا القيروان فى هذا العصر :

عقبة بن نافع الفهرى

ولد عقبة بالمدينة فى السنة العاشرة من الهجرة . وقدم افريقية سنة 50 فى جيش عظيم واختط مدينة اسلامية سماها «القيروان» (1) وأقر بها الجيش ، ثم استقدمه الخليفة معاوية بن ابى سفيان الى الى المشرق ، واولى مكانه ابا المهاجر دينار . وفى خلافة يزيد بن

(1) القيروان : لفظ فارسى استعمل فى العربية : ومعناه . محط الجيش

معاوية ، اضطرب امر القيروان فأعاد عقبة واليا عليها سنة 62 فتدارك امرها ، واستخلف عليها زهيرين قيس البلوى • ثم اتجه الى بـــلاد المغرب فاخضع البربر • ويروى انه لما بلغ فى فتوحاتـــه المحيـط الاطلنطى رفع يديه الى السماء وقال باعلى صوته : « اللهم اشهد انى قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد اقاتل من كفـر بك ، حتى لايعبد احد من دونك »

ثم قفل راجعا وراء جيوشه التى كانت تقدمته ، ولم يبـق معـــه الازهاء ثلاثمائة ومن بينهم كسيلة الزعيم البربرى الذى كان اسيرا عنده ، فاغتنم الفرصة واخبر قومه بقلة المسلمين ، فهاجموا عقبـــة وأصحابه ، وقتلوهم جميعا • وقد دفنوا فى المكان الذى استشهـدوا فيه قرب بسكرة من بلاد الجزائر ويعرف اليوم باسم « سيدى عقبة » وذلك سنة 64 هـ •

ومما يؤثر عن عقبة وصيته لابنائه بالقيروان لما خرج الى الجهاد • وقد جاء فيها :

« يا بني ! انى بعت نفسى من الله ، ولا ادرى ما يقضى على فـــى سفرى • انى اوصيكم بخصال فاحفظوها ولا تضيعوها املأوا صدوركم من كتاب الله فانه دليل على الله ، وخذوا من كلام العرب ما تهتـــدى به السنتكم ويدلكم علىمكارم الاخلاق، واوصيكم الا تداينوا ولولبستم العباء ، فان الدين هم بالليل وذل بالنهار ، فدعوه تسلم لكم اقداركم واعرضكم • ولا تقبلوا العلم من المغرورين فيفرقوا بينكم وبين الله ، ولا تاخذوا دينا الا من اهل الورع ، فانه اسلم لكم • ومن احتـــاط سلم ونجا ! »

ابو عبد الرحمن الحبـــلى

اسمه عبد الله بن يزيد المعافرى • قدم القيروان على رأس بعثـــة تتركب من عشرة من الفقهاء ، اوفدهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية

ليفقهوا اهلها فى الدين • وكان الحبلي راوية للحديث روى عن جماعة من الصحابة ، منهم أبو أيوب الانصارى ، وعبد الله بن عمر ، وقد سكن القيروان وبنى بها مسجدا قرب باب تونس وبها توفي سنة 100 وقبره بالحطبية معروف •

ومما يؤثر عنه قوله : « مثل الذى يجتنب الكبائر ويقع فى المحقرات كمثل رجل لقيه سبع فاتقاه حتى نجا منه ، ثم لدغته نملة فتهاون بها ، ثم اخرى ، حتى اجتمعن عليه فصرعنه »

عبد الرحمان بن زياد المعافرى

ولد بالقيروان سنة 64 ، وكان أبوه ممن قدم الى افريقية مع عقبة • وقد شب عبد الرحمن فى طلب العلم حتى صار راوية للحديث وأديبا شاعرا • واشتهر بالزهد والورع ، ولازم ابا جعفر المنصور قبل ان يتولى الخلافة ، ثم رجع الى القيروان ورحل ثانية الى العراق فاتصل بأبي جعفر وهو خليفة فقال له : كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ قال : رأيت ظلما فاشيا • قال له أبو جعفر : لعله فيما بعد عن بابنا • قال : بل كلما قربت استفحل الامر • قال : مايمنعك أن ترفع ذلك الينا وقولك عندنا مقبول ؟ قال : رأيت السلطان سوقا • وانما يرفع الى كل سوق ما ينفق فيها • فقال له ابو جعفر : كأنك كرهت صحبتنا • فقال : ما يدرك الشرف والمال الا بصحبتكم ، ولكنى تركت عجوزا ، وانى احب مطالعتها •

وقد ولي ابن زياد قضاء القيروان مرتين وتوفي سنة 161 ودفن بمقبرة باب نافع بالقيروان •

ومن شعره فى الشوق الى مسقط رأسه اثناء اقامته بالعراق :

ذَكَرْتُ القيروانَ فهَاجَ شوْقِي وَأَيْنَ القيروانُ مِنَ العِرَاق ؟
مَسِيرَةُ أشْهُرٍ للعِيسِ نَصًّا وَلِلْخَيْلِ المُضَمَّرَةِ العِتَاق

فبَلِّغْ أنعُما وبَنِي أبيهِ   وَمَنْ يرْجُو لنا وَآمهُ التَّلاقِ
فإنَّ اللّهَ قدْ خلَّى سَبِيلِي   وجدَّ بِنَا المَسيرُ إلى مزَاقِ (1)

حنش الصنعـــــاني

كان من أشهر رواة الحديث روى عن جماعة من الصحابة منهم علي ، وابن عمر ، وابن عباس • ولد بصنعاء ، وشهد غزو افريقية ، وفتح الاندلس مع موسى بن نصير ثم عاد الى القيروان وسكن بها الى ان توفى سنة 100 • وقبره مشهور حذو ضريح ابى زمعة البلوى . وكان كثير الصدقة لايرد سائلا قط ، واذا استطعمه السائل على باب داره لم يزل يصيح باهله : اطعموا السائل ! حتى يطعم •

البهلول بن راشد

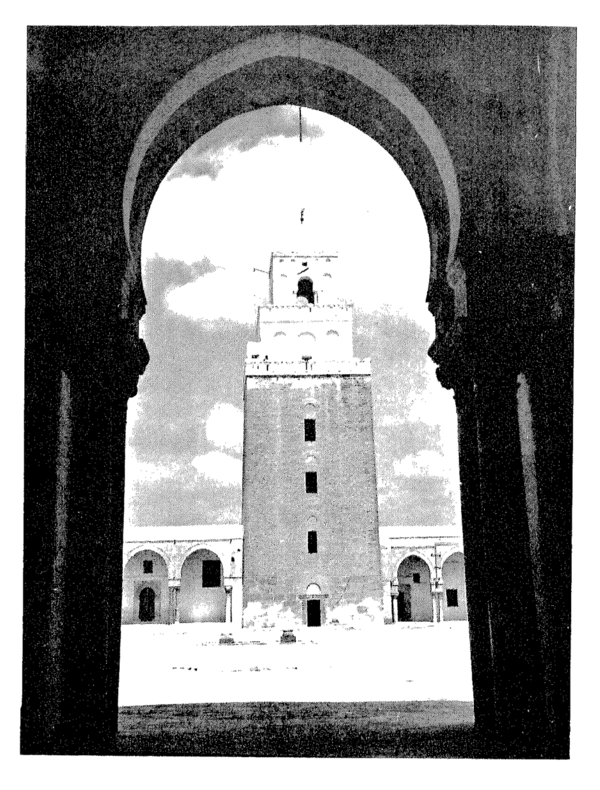
ولد بالقيروان سنة 128 وتلقى علوم الدين بالمدينة عن مالك بن انس • وقد قال فيه : « هذا عابد بلده » ولما عاد الى القيروان ، اخذ عنه سحنون وانتفع بعلمه ، فكان يقول : مثل العلم القليل في الرجل الصالح مثل العين العذبة في الارض الخصبة يزرع عليها صاحبها زرعا فينتفع به • ومثل العلم الكثير في الرجل الصالح مثل العين الثرة في الارض السبخة ، تهدر الليل والنهار ولا ينتفع بها • ثم يعقب على ذلك بقوله : البهلول كان رجلا صالحا ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره • وكان يقول : انما اقتديت فى ترك السلام على اهل الاهواء ،والصلاة خلفهم بمعلمى « البهلول » وقد توفى البهلول سنة 183 ودفن بباب سلم بالقيروان وقبره هنالك معروف •

---

(1) مزاق : اسم لفحص القيروان . سماه العرب بذلك لتمزق الاسحبة فيه

العصر الأغلبي

(185-296 هـ)



ـ مئذنة جامع عقبة
طولها 35 م . وبها 128 درجة
وقد اتخذ رجال الفن من المسلمين فى المغرب والأندلس هذه المئذنة نموذجا لمساجدهم
ولكن لاتوجد بينها واحدة تضاهيها فى عظمة مظهرها وقوة توازنها

سياسة الأغـــالبة

كان عصر الاغالبة عصر سيطرة على البحر الابيض المتوسط • فقد عظمت دولتهم وامتد نفوذها الى برقة وطرابلس وقسنطينة ، وانشات اسطولا قويا فتحت به صقلية ومالطة وسردانيا • وشيدت لحمايـــة البلاد من الغارات البحرية قلاعا ورباطات يقوم على حراستها رجـال متطوعون من الفقهاء والزهاد والمتعبدين • ولم تزل بعض معالمها بلمطة والحمامات وقليبية • واحاطت المدن الساحلية بأسوار منيعة لم يـزل قائما منها سور سوسة وصفاقس والحمامات • كما شيدت مدينـة العباسيـــة عـلى ثلاثـة اميال من القيـروان ، ومدينـــة رقـــادة على بعد ستة اميال • فضلا عما انشأته من القصور والفنادق والحمامات والمساجد والمنارات ، كمسجد ابن خيرون بالقيروان ومنارة سيـــدى بوسعيد • ومن آيات فنهم المعمارى مئذنة جامع عقبة الرائعة ، وقبة المحراب الجميلة بالجامع ، ومحرابه الرخامى المخرم ، ومنبره البديع الزخرف •

ولعل من ابرز مظاهر السياسة المعمارية لدولة الاغالبة ، عنايتهـا باحياء البادية ، واهتمامها بالرى ، اذ جلبت مياه العيون والاوديـــة الى ما انشاته من صهاريج وفسقيات لم يزل بعضها ماثلا الى اليـــوم كفسقية الاغالبة بالقيروان وفسقية رقادة ، وفسقية المردين قـــرب مساكن ، وصهريج الصفرة بسوسة •

ولكثرة ما كان يتجمع من مياه الرى فى الصهاريج ازدهرت الفلاحة بالوسط ، وخاصة بضواحى القيروان التى غـــدت ــ كما وصفهـــا المؤرخون ــ جنات فيحاء لكثرة اشجارها المثمرة ورياحينها المتنوعة •

كما ازدهرت الصناعة في هذا العصر،فاعدت لها الاسواق وانشئت المعامل لصنع الاسلحة والبارود ، والزجاج والبلور ، والخزف المطـــلى

والفخار ، والرق وورق الكتابة ، والمنسوجات والتطريز ، ودبغ الجلود ، وصناعة الاحذية والسروج ، وبذلك صار للتجارة اسواق نافقة جعلت القيروان مركزا هاما للمعاملات ، ومحطا للقوافل التجارية ، بما وفرته الدولة الاغلبية من مواصلات وأمن كما قال ابن الاثير : « كان القوافل والتجار يسيرون فى قطر البلاد آمنين » وكان من نتائج هذه السياسة العمرانية أن نمت الثروة العامة فى البلاد ، وتضاعف عدد سكانها والوافدين عليها بما لايقل عن خمسمائة الف نسمة . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « واستبحر العمران فى القيروان وقرطبة حاضرتى المغرب والاندلس ، وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة . »

مدينــة رقــادة

تقع رقادة فى الجنوب الغربى من القيروان وتبعد عنها 8 كيلو مترات امر ببنائها ابراهيم بن احمد بن الاغلب سنة 263 لتكون مقرا للدولة الاغلبية ، اذ اصبحت فى نظره مدينة العباسية التى انشاها اجداده ، لاتتلاءم وما صارت عليه الدولة من سعة الملك وبسطة السلطان ، ولا تضاهى فى العظمة عواصم الممالك القوية مثل مدينة (سامرا) التى انشاها فى ذلك العهد المعتصم العباسى بالعراق ، ومدينة (القطائع) التى انشأها احمد بن طولون بمصر .

وقد وقع اختياره على مكان رقادة لطيب هوائه وجيد تربته قال البكرى : « وليس بافريقية اعدل هواء ولا ارق نسيما ولا اطيب تربة من رقادة »

اختط ابراهيم المدينة الجديدة فاحاط بها الخمائل والبساتين ، وجلب اليها الماء من مسافات بعيدة ، واتخذ الصهاريج الفسيحة لخزنه عند انحباس الغيث ، وأقام حولها سورا منيعا ، وابتنى فى وسطها

جامعا جلب له الاعمدة الرخامية من جزيرة صقلية ، وشيد لنفسه قصرا سماه « قصر الفتح » وانشا بالقرب منه « بيت الحكمة » وعدة قصور اخرى منها قصر الصحن وقصر بغداد

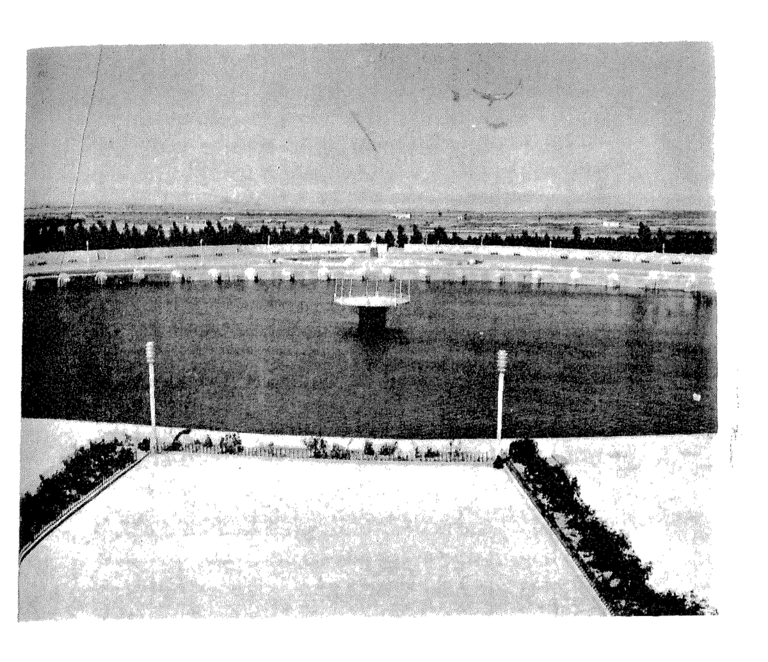
ولم يقتصر الملك الاغلبى على ان تكون مدينة رقادة خاصة بـه وبحاشيته ودواوين حكومته، بل اعد فيها الاسواق والفنادق والحمامات وغير ذلك من مرافق الحضارة حتى رسخت فيها دعائم الرخاء والرفاهة. ومما يرويه المؤرخون ان الملك الشاب رخص فيها ببيع النبيذ ، وكان محظورا في مدينة القيروان ، وفي ذلك يقول احد شعرائها

يَا سَيِّدَ النَّاسِ وَابْنَ سَيِّدِهِمْ
وَمَنْ إِلَيْهِ رِقَابُ النَّاسِ مُنْقَادَةْ
مَا حَرَّمَ الشُّرْبَ فِي مَدِينَتِنَا
وَهْوَ حَلاَلٌ بِأَرْضِ رَقَّادَةْ ؟

وقد ظلت رقادة دار ملك بنى الاغلب حتى تولى زيادة الله الاخير سنة 290 هـ فابتنى لنفسه قصرا سماه « قصر البحر » ولم تزل بعض جدرانه قائمة ، ولكن احد سكان المنطقة بنى على انقاضه قبل الاستقلال مسكنا له .

ثم اد ل الله للعبيديين من الاغالبة سنة 296 ، فغادر زيادة الله الاخير مدينة رقادة الى المشرق ، وقدم عبيد الله المهدى وحل بها فكانت مقرا للدولة العبيدية الى سنة 308 وقد اخذت اليوم تعود الحياة الى هذه المنطقة التى تفجرت فيها العيون ، وغرست الاشجار ، وتزايد العمران وشيد فيها المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة « القصر الرئاسى »

وقد اكتشف بها المنقبون عن الآثار بقايا مقابر رومانية تحتوى على أوان خزفية ، عدا ما اكتشف بها من آثار وتحف اغلبية عرضت بمتحف ابراهيم ابن الاغلب بالقيروان .



ـ فسقية الاغـالبـة
أسسها أبو ابراهيم احمد بن الأغلب سنة 245 هـ . وبجانبها بركة صغيرة . وكان يتجمع فيها الماء من الشريشيرة وجلولة بواسطة حنايا . فيتمكن أهـل المدينـة مـن استهلاكه لسقي بساتينهم وقد بنى فى وسطها مقعد كـان يصل اليـه الامير الاغلبى فى زورق عندما يخرج للنزهة.

الحركة العلميـــة

لقد انتشر التعليم فى العصر الاغلبى انتشارا عظيما بما توفر فى القيروان وغيرها بمدن افريقية من كتاتيب يلقن فيها الصبيان القرآن الكريم ومبادىء العربية وقواعد الدين ، وبما انشأه الاغالبة من مساجد تدرس فيها علوم الدين كالتفسير والحديث واصول الفقه ، وعلـــوم اللغة والادب كالنحو والصرف والشعر ٠

روى ابن ناجى فى معالم الايمان : « ان عبد الله بن غانم انصرف يوما من الجامع الاعظم بالقيروان بعد صلاة الجمعة ، فدخل عليه بعض اصحابه ٠ فسأله ابن غانم : هل حضرت الجامع ؟ قال : نعم ٠ قال ابن غانم : كيف رايت ؟ قال : رأيت سبعين قلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوة فقيه ٠ فترجع ابن غانم وقال : مات الناس ! »

ان الاسف الذى عبر عنه ابن غانم يدل على ان علماء زمانه اقل مما كان عليه العلماء فى القديم من الكثرة ، ولكن رغم ذلك فان هذا العدد الضخم كاف للدلالة على مدى انتشار العلوم الدينية فى ذلك العصر ٠

ومما ساعد على ازدهار هذه الحركة اقبال الناس المتزايد على دروس الفقه والحديث ، ومكانة الفقهاء والمحدثين فى المجتمع الافريقى ثم نزوح علماء الشرق الى افريقية ، وارتحال علماء افريقية الى الشرق ٠

ففى القرن الثانى للهجرة رحل كثير من علماء القيروان الى دمشق وبغداد والكوفة والبصرة ، ومنهم من قصد المدينة ، واخذ عن امـــام دار الهجرة مالك بن انس وتتلمذ له ثم عاد الى القيروان يلقن الناس ما تلقاه ودونه كاسد بن الفرات ، والبهلول بن راشد ، ورباح بن ثابت الازدى ، وعبد الله الرعينى وغيرهم ٠ وكان مالك شديد الاهتمام بهم يتتبع اخبارهم بعد عودتهم ، ويتصل بهم عن طريق المراسلة ، ويعنى بالرد على رسائلهم ٠ ولما توفى مالك كان تلاميذه امثـــال ابن القاسم واشهب وابن وهب قبلة الانظار لدى طلاب المعرفة من ابناء القيروان

وافريقية ، يشدون اليهم الرحال ليجمعوا كل ما عندهم من علم مالك، ويؤلفوا للناس الكتب في الفقه والفتاوى والاحكام على المنهاج الـذى سار فيه • وفي مقدمة هؤلاء سحنون •

ومما يفسر به ذلك الاقبال العظيم من فقهاء القيروان على مذهـب مالك ، وتشبثهم به ، وذودهم عنه ، ثم نفرتهم من فقهـاء العـراق (الحنفية) الذين كثيرا ما يعملون بالراى والقياس ، ويحتكمون الى العقل ويبتدعون الاحكام في القضايا ، هو مارأوه من تهافتهم على الامـراء والتماسهم الرخص لهم عن طريق التاويل البعيد ، ثم اعتقادهم بـأن سلامة الدين في صونه من عقائد الشيعة المتطرفة ، والخارجية الثائرة التى اخذ ينفث سمومها فى افريقية اعداء البيت الاموى والعباسى من الشيعة والخوارج ، حتى أصبحوا يعارضون آراءهم وتأولاتهم بالنقد والتجريح ، ويعتبرون كل انحراف في التخريج كأنه مروق عن الدين •

ومن اجل ذلك بادر سحنون عند توليه القضاء بمنع دروس الاباضية والصفرية والمعتزلة التى كانت تلقى بجامع عقبة ، وعزل اصحابها عن ان يكونوا ايمة للناس او معلمين لصبيانهم ، بل عمد الى حظر الجدل والمناظرة فى غير الفقه المالكى •

ان هذا الضغط الدينى وان عد من مساويه انه اغلق عن الفكر نوافذ كان لها ان تنفتح ، وكبت قرائح كان لها ان تنطلق ، وقيد عقولا كان لها ان تتحرر ، وحمل الناس على ان ينظروا الى الدين من نافذة واحدة . فان من حسناته توحيد القوى ، وائتلاف الجهود فى فترة اصبحت فيها افريقية ـ اوكادت ـ مسرحا للاطماع السياسية ، والنزاعات المذهبية • وهى التى طالما تجرعت مرارة الانقسام فى عصور ما قبـل الاسلام ، وما نتج عن ذلك الانقسام من تغاير فى التقاليد والعادات ، واختلاف فى المعتقدات والاهواء ، وتباين فى اللغات واللهجات •

فكان المذهب المالكي كحزب جمع الشعب تحت لوائه ، وصانه من خطر التفرقة ، وكان كحصن حفظ المجتمع الافـريقى من عوامـل الانحلال ••• !

والجدير بالذكر هنا ان امراء الاغالبة لم يسايروا هذا التيار ولـم يكترثوا لهذا التعصب المالكى الذى يعتز به علماء القيروان واهلها ايما اعتزاز ، بل كانوا يعتمدون فى الفتاوى والاحكام الفقهاء العراقيين وكثيرا ما ينشب الخلاف بين الطائفتين فيناصر الامراء فقهاءهم ، ويلتف اهل القيروان حول فقهائهم . وقد شعر بعض الامراء بما تنطوى عليه تلك المعارضة من تحد سافر للسلطة ، فبطشوا ببعض الفقهاء واضطهدوا الآخرين ، ولكن ذلك لم يزدهم فى نظر العامة الا تمجيدا وتعظيما باعتبارهم ضحايا الحق او شهداء العقيدة الصحيحة .

روى المالكى ان سحنونا حضر جنازة فتقدم ابن ابى الجواد الذى كان قاضيا قبله ــ وكان يذهب الى رأى الكوفيين ــ فصلى عليها، فرجع سحنون ولم يصل خلفه فبلغ ذلك الامير زيادة الله فأمر عامله بالقيروان ان يضرب سحنونا مائة سوط ، ويحلق لحيته ورأسه . فبلغ ذلك وزيره على بن حميد . فأمر العامل ان يتوقف ، وتلطف حتى دخل على الامير وقت القائلة فقال له : لاتفعل ! انما اهلك العكى ضربه للبهلول بن راشد . وقد حبست البريد شفقة على الأمير ، فشكره ولم ينفذ امـره »

وهكذا استطاع فقهاء المالكية فى القيروان ان يؤلفوا اتباعا وانصارا ويمتلكوا قلوبا وافكارا ، فكان لمعارضتهم تأثير عظيم فى عامة الناس لانهم اتخذوا لانفسهم منهجا واضحا فى الحياة لايتعارض وما يؤمنون به ، ولم يجد العامة منهم تناقضا اورياء او مداهنة ، ولم يتخذوا الدين مطية لاغراض سياسية كما كان يفعل بعض رجال الدين ، لان مالكا كان ينصح « بان يضل الفقية بعيدا عن السلاطين واصحاب الامر حذرا من التأثر بمغرياتهم » فعمل فقهاء القيروان بهذه النصيحة ما أمكنهم ذلك .

قال محمد بن سحنون : قلت لسحنون : ان فلانا لاياتى الوالى الا بالليل مخافة ان يراه الناس ، فكتب اليه بعض اخوانه : « ان الذى يراك بالنهار ، هو يراك فى الليل » فاعجب سحنون بهذه العبارة وقال:

« ما اقبح العالم يؤتى الى مجلسه فلا يوجد فيه ، فيسأل عنه ، فيقول : هو عند الامير او عند الوزير • ثم قال :فاذا رايتم العالم يحب الدنيا ويتهافت على الجاه فاتهموه على دينكم »

فيتضح لنا من كل ذلك الدور العظيم الذى اضطلع باعبائه سحنون فى سبيل نشر المذهب المالكي وتدعيم اركانه بافريقية ، ثم ما كان له من اثر بالغ فى الحياة الاجتماعية والسياسية بما بثه فى الناس ، وبما سنه بسيرته واحكامه ومواقفه من سنن اتخذها كثير من العلماء بعده منهجا لهم فى الحياة •

كما توضح لنا مواقف فقهاء المالكية من السلطة الحاكمة ، ان التفاف العامة حولهم لم يستغلوه لمقاومة الامراء والحكام او مناوءتهم ، وان انعزالهم عنهم لم يريدوا من ورائه الى احتقار شانهم ، او الاستهانة بسلطتهم ، لانهم ساروا فى هذا الاتجاه مع جميع الامراء وحتى المصلحين منهم الذين لايخشى الاتصال بهم ، ولا يستراب فى دواعى صحبتهم ، ولم يثبت ان احدهم اعلن الثورة يوما على امير ، او حاول ان يؤلب الناس عليه ، رغم مالاقاه بعضهم من اضطهاد وتنكيل •

فهذا سحنون قدوة العلماء وامام المالكية بافريقية ،كان يردد القول فى مجالسه لتلاميذه وللعامة « لا يجوز الخروج على الايمة بالسيف وان جاروا » وذلك اعتقادا منه « بأن الثورات والفتن تصدع اركان الدولة ، وتفت فى ساعد الامة ، وتنزل معها الكوارث والويلات ، ولا يستفيد منها الا العدو » •

ولكن ذلك لا يمنع العالم من الاصداع بما يراه انه الحق، ومن المعارضة السليمة من كل حقد او عداء ، والبريئة من كل غرض سياسى أو غاية شخصية ! فكان زهدهم فى طلب الجاه ، مما جنبهم التنافس وجعلهم متآخين متضامنين فى السراء والضراء •

روى المالكي « ان شيخا له علم وعقل كان يأتى الى زقاق (الفرانين) قرب السماط بالقيروان ،فيجلس مع قوم جلهم من اهل

العلم والادب ، فأبطأ عليهم اياما ، فمضوا اليه يتعرفون أحواله . فسألوه عما اخره عنهم . فأخبرهم ان حماره الذى كان ينصرف عليه قد اصيب به ، فأصبح كل واحد منهم ، وقد اشترى له حمارا بسرجه ولجامه دون ان يعلم صاحبه ، وكانوا جماعة ، فأصبح على بابه نحو الاربعين » .

اما ما يعلل به اقبال الناس على علوم الدين اكثر من اقبالهم على علوم اللغة وغيرها فهو ان الدين كان يثير الحاجة الى الفقهاء الذين يختار منهم لمنصب القضاء . ولاهمية هذا المنصب فى الدولة ، واتصاله بشؤون الناس ومشاكلهم العامة والخاصة ، كان امراء الاغالبة يجتمعون بكبراء الدولة ووجوه الامة ليستشيروهم فى تسمية قاضى الجماعة . وشعور الناس بجلال هذا المنصب يدفعهم الى استعمال كل الوسائل لحمل الملك على تولية قاض اوعز له كما حدث فى عزل ابن ابى الجواد ، وتولية سحنون من بعده .

وكان القضاة العراقيون (الحنفية) لايجدون غضاضة فى الاتصال بالامراء وزيارتهم فى قصورهم،والتوجه لهم احيانا بالنصح والارشاد . وبعضهم لا يبالى بامتهان الرعية له ما دام يتمتع بعطف الامير وتأييده .

حكى القاضى ابراهيم الكوفى قال :

« دخلت يوما مع الامير ابراهيم بن أحمد بن الأغلب الى جنان برقادة فيه ثمر قد طاب . فأخذ الامير بعض الثمر فناولنى اياه ، فاكلته ولم اقل شيئا . فالتفت الى وقال :

دخلت هذا الجنان مع القاضى عبد الله بن طالب فى مثل هذا الحين ، فناولته من بعض ثمره ، فقال لى : أيها الأمير ! يجب عليك لله شكران . بلغك الى غراسته ، ثم أكلت من ثمره . فقلت له : وما هذا الشكر ؟ قال أن تصلى ركعتين . فأمر ببساطين ، فصلينا ركعتين . ثم قال : بقيت أخرى . فقلت وما هى ؟ قال : تبعث

بصدقة الى أهل الدمنة (مستشفى القيروان) فان أهله أهل زمانة وضعف • قــال ففعلت • ثم قــال لى : وبقى شكر آخــر . قلت : وما هو ؟ قال : تعزل من عمالك من كان جائرا ، وتجعل من يعدل فى الرعية ، قال : فأمرت بذلك • وسكت الامير لحظة ، ثم التفت الى وقال : ودخلت هذا الجنان مع غيره من القضاة • فلما ناولته من ثمره قال : الأمير يحب قاضيه ، والرعية تمتهنه • فانظر كم بيــن الرجليــن ؟ » •

لقد أراد الأمير الأغلبى • بما ذكره فى هذا المقام بالمناسبــة أن يبين للقاضى ابراهيم الكوفــى • ان من وفق فى احكامه من القضــاة واجتهد في اعماله، نال حب الامير والرعيــة معا • ومن قصــر نظره وساء تصرفه منهم ، فقد النصير وامتهن •

وما أبعد الفرق بين قاض ينصح الأمير بالبر ، ويدعوه الى مراقبة عماله لعزل الجائرين منهم • وبين قاض يتملق الأمير ، ويشكــوه امتهان الرعيــة ايــاه ! •

ومن أشهر علماء القيروان فى عصر الأغالبة :

أســد ابــن الفــرات

وهو خرسانى الأصل ، قيروانى الدار ، قدم القيروان مع الوالى محمد بن الاشعث ، وتلقى العلم فى تونس عن على بن زياد • ثــم سافر الى المدينة فأخذ الموطأ عن مالك ، ورحل الى العراق ، فأخــذ عن أبى يوسف صاحب أبى حنيفة الاسئلة التى كان يثيرها الحنفية ويضعون لها الأحكام • فجردها أسد من أحكامها وعرضها على مذهب مالك ودون ذلك كله فى كتابه (الأسدية) قيل انه يشتمل على نحو ستة وثلاثين الف مسألة ، ثم عاد الى القيروان ، وتصدى للتدريس وتتلمذ عليه الكثيرون وفى طليعتهم سحنون •

وفى سنة 204 ولى قضاء افريقية • ولما عزم زيادة الله بن الأغلب

على غزو صقلية ، طلب منه أسد أن يأذن له فى الخروج كجندى فأولاه قيادة الجيش وقال له : انى وليتك الامارة ولم أعزلك عن القضاء • فأنت قاض أمير •

وخرج ابن الفرات من ثغر سوسة يقود عشرة آلاف مقاتل • وحل بساحل صقلية ، فانبرى له أهلها واندلعت نار الحرب فاستمات اسد فى مواطن كثيرة ، حتى استشهد متأثرا بجراحه فى مدينة (سرقوسة) عاصمة صقلية ودفن بها وذلك سنة 113 •

ومما يؤثر عن ابن الفرات : رأيه فى الافتاء •

فقد سئل عن الرجل يسأل عن المسألة وهو يعرف اختلاف الناس فى مثلها • هل يفتى بالأقاويل ، أو يستحسن أحدها فيفتى به • فأجاب :

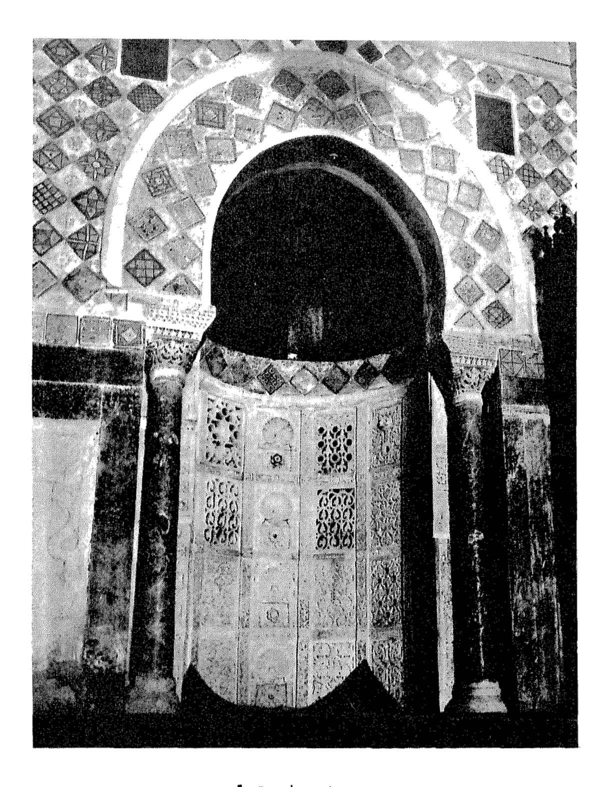
« اذا كان من أهل النظر فلا يفتى بالقولين لأنه يدع السائل فى حيرة ، ولكنه يفتى بأحسن الأقاويل عنده • واذا كان من غير أهل التمييز ، فليخبر المستفتى بما روى عن العلماء ولا يتخير له » •

وسئل عن النبيذ أحلال هو أم حرام ؟ فقال :

« ان النبيذ أخبث الخبائث ، لا تقوم به عبادة ولا صيام ولا صلاة ولا جهاد ولا صدقة ، انما يقوم به مزمار أو عود أو طنبور ، فلو لم يعتبر تحليله من تحريمه الا بأخواته التى تقارنه لكفى » •

وقال له يوما عبد الخالق المتعبد : ايا ابا عبد الله ! جئتنا بالراى وتركت الآثار وما كان عليه السلف • فأجابه أسد :

« اما علمت أن قول أصحاب النبىء صلى الله عليه وسلم هو رأى لهم ، وهو أثر لمن بعدهم • وكذلك التابعين هو رأى لهم ، وهو أثر لمن أتى بعدهم »



ـ محـراب جـامع عقبـة
بنى فى عهد زيادة الله الأغلبى
يزدان حائط هذا المحراب بمائة وثلاثين قطعة خزفية ذات رسوم بديعة مختلفة الأشكال
ولها بريق معدنى كبريق الذهب
وبداخل المحراب رخام أبيض منقوش او مخرم

سحنـــون

هــو عبد السلام بن سعيد · ولد بالقيروان سنة 160 ، وتلقى العلم بافريقية على أسد ابن الفرات · ثم رحــل الى الشرق فــزار الحجاز ومصر والشام ، وأخذ عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب ، وابن الماجشون وغيرهم من تلاميذ مالك · وقد أعاد قراءة ما دونــه أسد بن الفرات على ابن القاسم وصححه عليه ، ثم عاد الى القيروان وألف « المدونة » التى أقبل الناس عليها فى المغرب والأندلس ·

ويعــد سحنون فى طليعة العلماء الافذاذ الــذين نشروا مــذهب مالك فى افريقية اذ تخرج عليه كثير من العلماء ، ذكر ابن ناجى انهم بلغوا نحو السبعمائة · قال أبو العرب : « كان الذين يحضــرون مجلس سحنون من العباد أكثر ممن يحضره من طلبة العلم ، وكانوا يأتون اليه من أقطار الأرض »

ولمــا ذاع صيته ورأى أبو العباس أحمد بن الأغلب تعظيم الناس اياه ، وتعلقهم به أولاه القضاء سنة 234 بعد محاولات عديدة · وفى ذلك يقول سحنون :

« لم أكن أرى قبول هذا الأمر حتى أطلق الأمير يدى فى كل مــا رغبت · وقد قلت له : أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعــوانهم فــان قبلهم ظلامات للناس وأموالا لهم منذ زمان طويــل اذ لم يجتــرىء عليهم من كان قبلى · فقال لى : نعم ! لا تبدأ الا بهم ، واجر الحق على مفرق رأسى ، وفكرت ! فلم أجد أحدا يستحق هذا الامر ، ولم أجد لنفسى سعة فى رده » ·

وكــان أول ما نظر فيه سحنون تنظيم الأسواق ــ وقد كان ينظر فيها الولاة دون القضــاة ــ فجعل عليها الأمنــاء ، وأودع عندهــم الودائع ، وكانت تودع فى بيوت القضاة · وأدب على الغش ·

وكان يجلس للقضاء فى بيت بناه بالجامع لهذا الغرض · حتى

صار الجلوس في ذلك البيت سنة لقضاة المالكية ، فاذا ولى القضاء حنفي هدمه ، واذا ولي مالكي اعاد بناءه وجلس فيه للقضاء •

وكان سحنون لا يهاب سلطانا في حق حتى يقيمه عليه • ولما اكثر من رد الظلامات من رجال ابن الاغلب ، وابى ان يقبل منهم الوكلاء على الخصومة الا بأنفسهم ، شكوه الى الامير ابن الاغلب : بأنه يغلظ عليهم فارسل اليـــه :

« ان فيهم لغلظـة ، وقد شكوك ، وأرى معرفاتـك من شرهـم وان أكثر أهل العلم يبيح للمطلوب أن يوكل » •

فارسل اليه سحنون : « ليس هذا الذى بينى وبينك ! وان حضور هؤلاء المعتدين بأنفسهم للمخاصمة رادع لهـم عن التعدى من جهـة الأنفة » •

ولذلك كان ابن الأغلب يقول عن سحنون : انه لـم يركب لنـا دابة ، ولا ثقل كمه بصرة ، فهو لا يخافنا •

روى أحمد بن سليمان الربعي أحد تلاميذه أن سحنونا كان يوما جالسا على باب داره ، اذ مر به حاتم الجزرى ومعه سبى سباه • فقال سحنون لأصحابه : قوموا فائتوا بهم • فذهبوا وخلصوا السبى من حاتم وأتوا بهم • ففر حاتم ومزق ثيابه ودخل على الأمير فشكا أمره • فأرسل الأمير الى سحنون : أن اردد لى حاتم السبى • فقال سحنون : انهم أحرار ولا سبى عليهم • وقد أطلقتهم ! فرد الأميـر الى سحنون : لا بد من ردهم ! فابـى سحنـون وامـر بسجن حـاتم فلحقه معتب أحد تلاميذ سحنون فقال : يا حاتم ! لا تلق الشر بين الأمير والقاضى ، وأعطاه من عنده سبعة دنانير ، فتخلى عن السبى وأخبر معتب سحنونا بذلك ، فأمر باطلاق حاتم •

وتخاصم اليه رجلان من أهل العلم ، فاقامهمـا وأبى أن يسمـع منهما وقال : استرا عنى ما ستر الله •

ومـن أقواله المأثـورة :

« أشقى الناس من باع آخرته بدنياه ، وأشقى منه من باع آخرته بدنيـا غيره » .

« أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علما . يكون عنـد الرجل بـاب واحد من العلم فيظن ان الحق كله فيه » .

« من لم تصلح له دنياه فسدت أخـراه » .

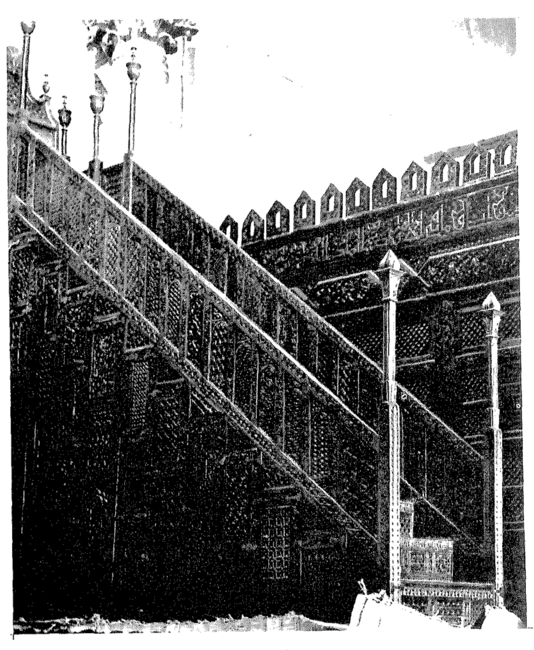
« ما أحب أن يكون عيش الرجل الا على قدر ذات يده ، ولا يتكلف أكثـر مـن ذلك » .

وقد توفي سحنون سنـة 240 فرجت القيروان لموتـه ، ورثـاه شعراؤها ومن بينهم عبد الملك بن نصر اذ يقول :

هُنَـاكَ بَـرَّزْتَ يَـا سُحنـونُ مُنفَـرِدا
كَسَابِـقِ الخَيْـلِ لَمَّا بَـانَ فَـانْقَطَعَـا
فَـاذْهَـبْ فَقِيدا حَبَـاكَ اللَّـهُ جَنَّتَـهُ
وَاحْصُدْ مِنَ الخَيْرِ مَا قَدْ كُنْتَ مُزْدَرِعا

ولعل من أبلغ التراجم لسحنـون . ترجمة محمـد بن الحـارث الخشني اذ يقـول :

« قـدم سحنون افريقية بمذهب مالك ، واجتمع له من ذلـك فضل الدين والورع والعفاف ، فبارك الله فيه للمسلمين ، ومالت اليه الوجوه ، وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد انمحـى ما قبله ، فكان أصحابه سرج أهل القيروان ... ابنه عالمها وأكثرهم تاليفا ، وابن عبدوس فقيهها ، وابن غافق عاقلها ، وابن عمر حافظها وابن جبلة زاهدها ، وحمديس أصلبهم في السنة وأعداهم للبدعة ، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحها ، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث ، وأشدهم وقارا وتصاونا . كل هذه الصفات مقصـورة على وقتهـم » .



ـ من بدائع الفن الاغلبى : منبر جامع عقبة

يتركب من نحو ثلاثمائة قطعة من خشب الساج ، وقد نقشت عليها اشكال بديعة من الزخارف المختلفة التى لاتتماثل فيها قطعتان ولم يزل المنبر العجيب مصدرا تؤخذ منه رسوم الزرابى القيروانية الشهيرة

محمد بن سحنون

ولـد بالقيروان سنة 202 وبها توفى سنة 256 • وكان ذكيـا ألمعيا منذ صباه • قال سحنون يوما لمعلمه : « لاتؤدبـه الا بالمـدح ولطيف الكلام ، فانه ليس ممن يؤدب بالضرب والتعنيف ، وانى لارجو ان يكون نسيج وحده ، فريد اهل زمانه » •

سمع من أبيه وغيره وارتحل الى الشرق فلقى جماعة من العلماء منهم أبو مصعب الزهرى صاحب مالك • ثم تصدى للتدريس بجامع عقبة فلم يجمع فى زمانه أحد من فنون العلم والأدب ما جمع • وقد الف كتبا كثيرة فى الفقه والتاريخ ، من أشهرها (كتاب الأمامة) الـذى أهداه الى الخليفة العباسى لما زار بغـداد •

وكان سريع الجواب حاضر البديهة : روى انه ناظر أبا سليمان النحوى وكان يقول بخلق القرآن ويذهب الى الاعتزال • فقال لـه ابن سحنون أرأيت كل مخلـوق هـل يـذل لخالقـه ؟ فسكت ابو سليمان ولم يحر جوابا • فسئل ابن سحنون أن يبين لهم معنى سؤاله هذا فقال : ان قال : ان كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر ، لانه جعل القرآن ذليلا ، اذ يذهب الى انه مخلوق • وقد قال الله عز وجل : « وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بيـن يديه ولا من خلفـه ، تنزيل من حكيم حميد » وان قال : انه لا يذل فقد رجع الى مذهب أهل السنة •

ومما يؤثر عن محمد بن سحنون موعظة كتبها الى أحد أمراء بنى الأغلب جاء فيها :

« لقد قلدت أمرا عظيما ، ولكل الخلق فيك نصيب ، قد اشترك فيك العدو والصديق ، فخلص نفسك من وثاقها بأن تملأ الأرض عدلا كما أمرك الله سبحانه • واعلم ان الذى ملكك أمر عدوك ، وأدال عليه ، وأذله بين يديك ، هو الله ربك وربه ، يديل الأمـور

بينك وبينه فى الدنيا ، ثم يتولى الحكم بينك وبينه يوم القيامة . فيأخذ منك له بمثاقيل الذر والخردل ... الى أن يقول :

فآثر رضى الله عز وجل على رضى عباده ، ولا ترض عباد الله بسخطه ، فانهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وأنزل كتابى هذا منك بمنزلة من مرض أبوه ، فهو يسقيه من الدواء ما يكره رجاء منفعته ، وهو به بار ، وعليه شفيق » .

وقد ذكر الدباغ في معالم الايمان : أنه لما توفى ابن سحنون رثاه أكثر من ثلاثمائة شاعر ، وان مرثية من هذه المراثى لأحمد بن ابى سليمان قد بلغت ثلاثمائة بيت . ومما جاء فيها :

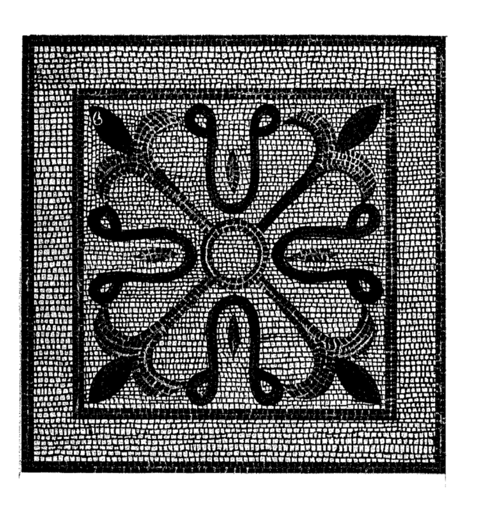
أَلاَ أيُّهَا النَّاعِي الذي جَلَبَ الأَسَى
وَأَوْرَثَنَا الأَحْزَانَ لا كُنْتَ نَاعِيَا

نَعَيْتَ إِمَامَ العَالَمِينَ مُحَمَّدا
وَقُلْتَ : مَضَى مَنْ كَانَ لِلدِّينِ رَاعِيَا

ومَنْ كَانَ حَبْرا عَالِما ذَا فَضِيلَة
تَقِيًّا رَضِيًّا طَاهِرَ القَلْبِ زَاكِيَا

وَقُلْتَ : ابْنُ سُحْنُون مَضَى لِسَبِيلِه
وَأَبْصَرْتُه حَقًّا كَمَا قُلْتَ مَاضِيَا

فَغَادَرَ أَهْلَ القَيْرَوَان بِوَحْشَة
وَكَانَ لَهُمْ أُنْسا وَخِلاًّ مُوَاتِيَا



فسيفساء اغلبية بانقاض رقادة

ثم الى جانب هذه الحركة العلمية الدينية الزاخرة التى لاقت من عناية عامة الناس وتقديرهم خير مشجع ، كانت هنالك حركة فى علوم الطب والفلسفة والرياضيات لاقت من عناية امراء الاغالبة واهتمامهم ما جعل القيروان كعبة القصاد ، يؤمها طلاب المعرفة من المغرب والأندلس والسودان • ففى سنة 265 أسس الأغالبة بمدينة رقادة بيت الحكمة، واسندوا رئاستها الى ابى اليسر الشيبانى(1) وجلبوا اليها الكتب اليونانية واللاتينية ، وقام على ترجمتها قساوسة استقدموا من صقلية وغيرها لهذا الغرض • وأعانهم على تعريبها افريقيون متضلعون فى العربية ، ومن أشهرهم أبو سعيد الصيقل•

كما استقدم من المشرق عدد من الأطباء انتصبوا للتدريس ببيت الحكمة ، امثال اسحق بن عمران ، وتلميذه اسحاق بن سليمان الاسرائيلى • وقد ذكر الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب : أن من تلاميذ هذا الرعيل اسرائيلى يدعى « نسيم بن يعقوب القيروانى » نبغ فى علم الهيئة والميقات ، حتى كانت الاسئلة ترد عليه من يهود العراق فى المشرق ، ومن الاندلس والمغرب ، يستفتونه فى توقيت المواسم الدينية ، اذ لم يكن بينهم من هو أعلم منه بهذا الشأن • وقد أنجب هؤلاء الوافدون من الأطباء وغيرهم علماء من أهل البلاد مثل أحمد بن الجزار •

اسحاق بن عمران

وهو بغدادى الأصل ، مسلم النحلة ، استقدمه الى افريقية زيادة الله بن الأغلب ، وأعطاه كتاب أمان بخط يده أنه متى أحب الانصراف الى وطنه انصرف ، وكان طبيبا حاذقا خبيرا بتركيب

---

(1) هو ابراهيم بن احمد الشيبانى المعروف بالرياضى . اصله من بغداد ، واستقر بالقيروان بعد ان طاف العالم . وجلب اليها الكثير من كتب المشارقه . ومن تآليفه سراج الهدى

الأدوية ومواطن العلل ، وبه ظهر الطب في المغرب • استوطن القيروان وألف في الطب كتبا كثيرة منها كتابه المعروف بـ (نزهة النفس) وكتاب « الأدوية المفردة » وكتاب في « الفصد » وكتاب في « النبض » وكتاب جمع فيه آراء أبقراط وجالينوس في الشراب •

ومما يروى : ان اسحق نهى يوما زيادة الله بن الاغلب عن شرب لبن مريب وكان مصابا بعلة « النسمة » وهي ضيق النفس ، فنفى عنه التخوف طبيب اسرائيلي ، فشربه • وفي الليل غرض له ضيق النفس ، حتى اشرف على الموت • فارسل الى اسحق لمعالجته فقال : لقد نهيته فلم يقبل مني ! ولم يقبل على علاجه الا بعد ان اخذ الف مثقال • ولما شفي الامير قال : لقد : باع اسحق روحي في البدءاقطعوا رزقه • فلما قطع عنه الرزق خرج الى موضع فسيح من رحاب القيروان، وجعل يكتب للناس وصفات الادوية كل يوم بدنانير ، فقيل لزيادة الله : عرضت لاسحق الغنى ! فامر بسجنه ، فتبعه الناس هنالك ، فامر بقتله وصلبه • وكان مما قاله لزيادة الله قبل ان يقتل « والله انك لتدعى بسيد العرب وما انت لها بسيد ، ولقد سقيتك منذ دهر دواء ليفعلن في عقلك ! » •

اسحاق بن سليمان الاسرائيلي

قدم من مصر وسكن القيروان ، ولازم اسحاق بن عمران وتتلمذ له وكان مع حذقه في صناعة الطب بصيرا بالمنطق ، متصرفا في ضروب المعارف• وقد عمر طويلا ولم يتزوج • قيل له يوما : ايسرك ان يكون لك ولد ؟ قال : أما وقد صار لي كتاب « الحميات » فلا ! ومن أشهر تآليفه ايضا « المدخل الى المنطق » و « المدخل الى صناعة الطب » •

قال ابن الجزار في كتاب اخبار الدولة « حدثني اسحق بن سليمان المتطبب قال : « لما قدمت من مصر على زيادة الله بن الاغلب وجدته مقيما بالجيوش في الاربس ، وقد كان بعث

فى طلبى ، وارسل الى بخمسمائة دينار تقويت بها على السفـر ، فادخلت عليه ساعة وصولى ، وسلمت بالامرة ، فرايت مجلسه قليل الوقار ، والغالب عليه حب اللهو وكل ما يحرك الضحك ٠

ولما وصل داعية المهدى ابو عبيد اللـه الصنعانى الى رقادة ادنانى ، وقرب منزلتى ، وكنت اعالجه بدواء فيه العقارب المحرقة ٠ فجلست ذات يوم مع جماعة من كتامة ، فسألونى عن صنوف من العلل ٠فكلما اجبتهم لم يفقهوا قولى ٠ فقلت لهم : انما انتم بقر ! وليس معكم من الانسانية الا الاسم ٠ فبلغ الخبـر الى عبيـد اللـه ، فقال : واللـه لولا عذرك بانك جاهل بحقهم لضربت عنقك ، فرايت رجلا شأنـه الجد فيما قصد اليه ، وليس للهزل عنده سوق » ٠



مسجد الثلاثة ابواب

اسسه بالقيروان محمد بن خيرون المعافرى الأندلسى سنة 252 هـ . حسبما يستفاد من كتابته المنقوشة على الواجهة وفى سنة 844 هـ . أحدثت صومعته ، وادخلت على بيت الصلاة اصلاحات مع المحافظة على واجهته المنقوشة

الحركـة الادبيـة

لم يكن حظ افريقية من الادب كبيرا في العصر الاغلبي بالقياس الى حظهـا من العلوم الدينية ، وذلك لانصراف النابهين من رجـال الفكر الى علوم الشريعة ، شعورا منهم بان افريقية لم تزل في مسيس الحاجة الى نشر تعاليم الاسلام ، وتنظيم الحياة الاجتماعية الجديدة على اصول الدين ، ثم لما وقر في نفوسهم من تقدير الناس للفقهـاء والمحدثين ٠

ومن ثم كان شعرهم تغلب عليه طريقة العلماء ، وتدور معانيه غالبا حـول الزهد والتصـوف القريب الواضح ، مما يذكرنا بشعر ابـي العتاهية ، فلم ينطلق كما انطلق الشعر في المشرق من قيود الالتزام التي كبلته عن التحليق في الاجواء البعيدة التائهة ! التزام الشاعـر بما التزمت به بيئته من تقشف وزهـد وتقاليد ، وذلك لمـا كان لسلطة الدين الروحيـة من اثر عظيم في اتجاهات الناس وميولهم ونزعاتهم واساليب عيشهم ٠ لذلك نرى المراثي قد طغت على سائـر الاغراض الاخـرى للشعر حتـى لكأن القريحة لا يوقد زنادها غيـر الموت ، فـاذا مـا تحلل الشاعر من قيود البيئة وتأثيرها ، وتغنـى بالحياة وجمالها عاد سريعا الى ذم الدنيا والزهد في الحياة ٠

حكى ابو اسحاق الرقيق ان الشاعر بكر بن حماد كـان ينتجـع ابراهيم بن الاغلب ويمدحه بغرر القصائد ، فغدا يومـا الى رقـادة بمديح له ، وقصد الفتى « بلاغ » خادم الامير فقال له الفتى : انـه مصطبح في جنان قصره مع الجواري ولا يصل اليه احد ٠ فارتجل بكر ابياتا كتبها في رقعة ومن هذه الابيات :

خـلـقْـتَ الغَـوانِـي للـرِّجَـالِ بَـلِيّـةً

فَـهُـنَّ مَـوَالِيـنَـا وَنَـحْـنُ عَـبِيدُهَـا

إِذَا مَا أَرَدْنَا الوَرْدَ فِي غَيْرِ حِينِهِ
أَتَتْنَا بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ خُدُودُهَا

وكتب تحت هذه الابيات :

فَإِنْ تَكُنِ الوَسَائِلُ أَعْوَزَتْنِي
فَإِنَّ وَسَائِلِي وَرْدُ الخُدُودِ

وبلغت الرقعة الى الامير ، فلما قرأها دفعها الى الجوارى فأنشدنها واظهرن سرورا بها وشفعن اليه حتى خرج الى بكر بن حماد بصرة مختومة فيها مائة دينار . ولكن سرعان ما قطع هذا الشاعر صلته بالماضى وذكرياته ، وانقلب الى واعظ يزهد فى الحياة ويذكر بالموت فيقول :

زُورُوا مَنَازِلَ قَوْمٍ لاَ يَزُورُنَا
إِنَّا لَفِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُقَاسُونَا
لَوْ يَنطِقُونَ لَقَالُوا : الزَّادَ وَيْحَكُمُ !
جِدُّوا الرَّحِيلَ فَمَا يَرْجُو المُلاَقُونَا
المَوْتُ أَصْبَحَ بِالدُّنْيَا يُخَرِّبُهَا
وَفِعْلُنَا فِعْلُ قَوْمٍ لاَ يَمُوتُونَا
مَا ذَا عَسَى تَنْفَعُ الدُّنْيَا لِجَامِعِهَا
لَوْ كَانَ جَمَّعَ فِيهَا مَالَ قَارُونَا

ويقول :

مَا بِالقُلُوبِ حَيَاةٌ بَعْدَ غَفْلَتِنَا
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهَا بِمِرْصَادِ

بَيْنَـا تَرَى المَرْءَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِـب
حَتَّـى تَـرَاهُ عَلَى نَعْـشٍ وَأعْـوَادِ
هَـذِي أبَـا بَـكْـرُ دُنْيَـانَا مُنَغّصَـةً
فِيهَـا حَـزَازَاتُ أحْشَـاءٍ وَأكْبَـادِ
فَـكُـلُّنَـا وَاقِـفٌ مِنْهَـا عَلَى سَفَـر
وَكُـلُّنَـا ظَـاعِـنٌ يَحْـدُو بِـهِ الحَـادِي
فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ نَـرَى نَعْشَـا نُشَيِّعُهُ
فَـرَائِـحٌ فَـارَقَ الأحْبَـابَ أوْغَـادِ
المَـوْتُ يَهْـدِمُ مَـا نَبْنِيهِ مِنْ فَـرَحٍ
فَمَـا انْتِظَارُكَ يَـا بَكْرُ بْنُ حَمَّـادِ ؟

نحن نعلم ان الكثيرين من شعراء المجون يسلكون سبيل الانابة الى الله متى اعوزتهم القوة وذبلت زهرة شبابهم ، ولكن قل ان نرى منهم هذا الافراط فى الزهد الذى يستكين اليه بعض شعراء افريقية ٠ وكل ذلك مرآة للبيئة الدينية فى القيروان ، تتجلى فيها نظرة الناس للحياة من خلال الدين ٠

فهذا ابو عقال غلبون بن الحسن من عائلة امراء بنى الاغلب نشأ بالقيروان فى احضان الرفاهية والترف ، وكان شاعرا ماجنا مفتونا بالنساء، يحضر الاعراس والمآتم متنكرا بزى النساء لينظر اليهن، ينقلب هو الآخر زاهدا يرفض الدنيا وهو لم يزل فى ريعان الشباب ويهاجر الى مكة ويتفرغ للعبادة ٠ ولما ناشدته اخته ان يعود الى القيروان لترى وجهه قبل الموت ، راسلها : « ما كنت ادع بلدا عرفت الله فيه ، واعود الى بلد عصيت الله فيه » ٠ فلم تتمالك اخته ان قدمت مكة فى موسم الحج واقامت معه الى ان توفى ، فكتبت على قبره من شعرها :

لَيْـتَ شِعْـرِي مَـا الـذِي عَـايَنْتَهُ
بَعْـدَ طُولِ الصَّوْمِ مَعْ نَفْـيِ الوَسَـنْ
وَاغْتِـرَابِ النَّـفْسِ عَـنْ أوْطَانِـهَـا
وَالتَّخَـلِّـي عَـنْ حَبِيـبٍ وَسَـكَـنْ
يَـا شَقِيقـا لَيْسَ فِـي وَجْـدِي بِـهِ
عِلَّـةٌ تَمْنَعُنِـي مِـنْ أنْ أجَـنْ
وَكَمَـا تَبْلَـى وُجُـوهٌ فِي الثَّـرَى
فَـكَـذَا يَبْـلَى عَلَيْهِـنَّ الحَـزَنْ

ومن شعر غلبون بن الحسن فى الزهد :

رَضِيـتُ بِـدُونِ الكِفَـايَةِ قُـوتَـا
وَبِـاللَّـهِ مِـنْ كُـلِّ خَلْـقٍ عِمَـادَا
فَـأضْحَـى المُلُـوكُ وَأهْـلُ النَّعِيـمِ
أقَـلَّ البَـرِيَّـةِ عِنْـدِي عِـدَادَا
وَأسْقَطْـتُ لَـوْمِـي عَـنِ العَالَمِينَ
فَمَـنْ شَـاءَ وَدَّ وَمَـنْ شَـاءَ عَـادَى
وَلَـمْ أرَ عَيْشـا كَعَيْـشِ القَنُـوعِ
وَلَـمْ أرَ مِثْـلَ التُّقَـى لِـيَ زَادَا

هذا وقد تناول الشعر فى العصر الاغلبى اغراضا اخرى ، ولكنه لم يبلغ فيها من الكثرة ما بلغه فى الرثـاء ، او الزهد ٠ ومن بينهـا الفخر **كقول ابى العباس بن ابى عقال الاغلبى :**

أنَا ابْنُ الحَرْبِ رَبَّتْنِي وَلِيدا
إلَى أنْ صِرْتُ مُمْتَلِئا شَبَابَا
لَعَمْرُ أبِيكَ مَا إن عِبْتُ قَوْمِي
وَمَا أخْشَى بِقَوْمِي أنْ أعَابَا
بَنَيْتُ لَهُم مَكَارِمَ بَاقِيَاتٍ
إذَا مَا صَارَت الدُّنْيَا خَرَابَا

وكقول ابراهيم بن الاغلب :

مَا سَارَ عَزْمِي إلىَ قَوْمٍ وَإنْ كَثُرُوا
إلاَّ رَمَى شَعْبَهُمْ بِالحَزْمِ فَانْصَدَعَا
وَلاَ أقُولُ إذَا مَا الاَمْرُ نَازَلَنِي
يَا لَيْتَهُ كَانَ مَصْرُوفا وَقَدْ وَقَعَا
حَتَّى أجَلِّيَهُ قَهْرا بِمُعْتَزِمٍ
كَمَا يُجَلِّي الدُّجَى بَدْرٌ إذَا طَلَعَا

ومن اشهر شعراء هذا العصر :

احمد بن سليمان الربعى

ولد بالقيروان سنة 204 وتوفى بها سنة 291 .

نشأ فى طلب العربية والشعر ثم اقبل على الفقه . فاخذ عن سحنون وغيره من علماء القيروان . وقد لازم سحنونا عشرين سنة فتأثر بسيرته واخلاقه وغلب عليه الزهد والورع .

ولمـــا توفي محمد بن سحنون رثاه بقصيدة تشتمل على ثلاثمائة بيت جاء فيها :

لَقَــدْ حَــلَّ مِنْ قَلْبِي مُصَابُ مُحَمَّــدٍ
بِــوَجْدٍ نَفَــى نَــوْمِي وَغَيَّــرَ حَالِيَــا
فَلَــوْ أَنَّــهُ يُفْــدَى مِنَ المَــوْتِ وَالبِــلَى
لَــكُنْــتُ لَــهُ دُونَ البَــرِيَّــةِ فَادِيَـــا
يَقُــولُ بُنَــيَّ ، حِيــنَ أَنْــكَــرَ حَالِيَــا
وَأَبْصَــرَ دَمْعِــي فَــوْقَ خَــدِّيَ جَارِيَــا
أَرَاكَ أَبِــي – فِي اللَّيْلِ – سَاهِــرَ مُقْلَــةٍ
وَتُصْبِــحُ مَشْغُــولاً عَــنِ الطَّعْــمِ طَاوِيــا
أَمَــالاً رُزِئْــتَ ، أَمْ أَصَابَتْــكَ عِلَّــةٌ
فَأَصْبَحْتَ مِنْهَا خَافِضَ الصَّوْتِ عَانِيَــا ؟
فَقُلْتُ لَــهُ : مَالِــي سَلِيمٌ ، وَلَيْسَ بِــي
سَقَــامٌ فَأَبْغِــي لِلسَّقَــامِ مُــدَاوِيَــا
وَلَــكِنَّنِــي لَمَّــا فَقَــدْتُ مُحَمَّـــدا
فَقَــدْتُ لِمَــا أَرْجُــوهُ فِيــكَ رَجَائِيَــا

ومن شعره في الزهـــد :

تَرَكْتُ تَكَالِيفَ الحَيَــاةِ لأَهْلِهَــا
وَجَانَبْتُهَا طَــوْعا فَجَانَبَنِي الــرَّدَى
أَرَانِــي بِحَمْدِ اللَّهِ فِي المَالِ زَاهِدا
وَفِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَفِي العِــزِّ أَزْهَــدا

وَقَدْ ذَمَّ قَوْمٌ مَا فَعَلْتُ جَهَالَةً
فَعَدُّوا مَعَ الجُهَّالِ بِالجَهْلِ أَحْمَدَا
وَلَوْ فَهِمُوا رَأْيِي وَأَمْرِي لَابْصَرُوا
وَقَالُوا رَأَى رَأْيًا أَصِيلاً مُسَدَّدَا

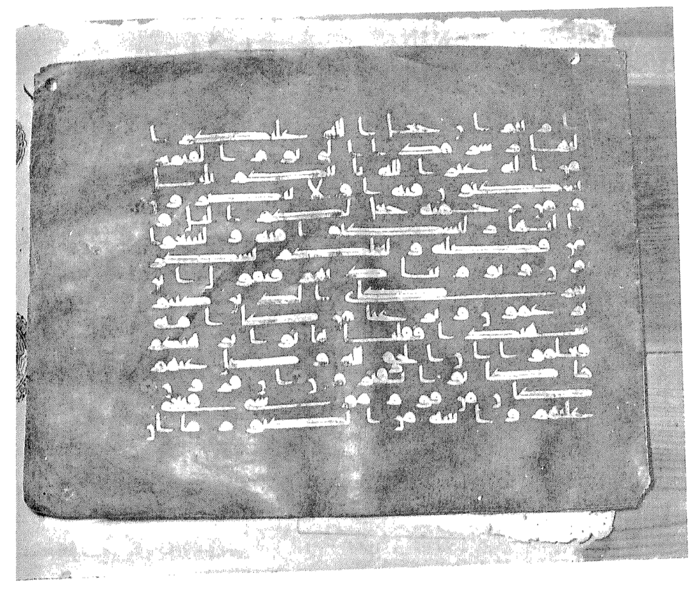
عيسى بن مسكين

هو احد اعلام القيروان الذين اخذوا عن سحنون وتأثروا به . ارتحل الى المشرق فتلقى العلم عن كبار العلماء ثم عاد الى القيروان يبث العلم ، ويدعو الى الحكمة والموعظة الحسنة . وكان الى حذقه فى العلوم الشرعية شاعرا مطبوعا . وقد ولى قضاء القيروان فى عهد ابراهيم بن احمد بن الاغلب . وتوفى سنة 295 عن سن تناهز الثمانين ، ومن حكمه الماثورة .

من اطلق طرفه كثر اسفه ـ فى تقلب الاحوال علم جواهر الرجال من حصن شهوته صان قدره ـ بحسن الثناء تسهل المطالب ـ كفاك ادبا لنفسك ما كرهته لغيرك ـ قارب الناس فى عقولهم تسلم من غوائلهم .

ومن شعره يتحسر على الشباب :

لَعَمْرِي يَا شَبَابِي لَوْ وَجَدْتُكْ
بِمَا مَلَكَتْ يَمِينِي لَارْتَجَعْتُكْ
وَلَوْ جُعِلَتْ لِيَ الدُّنْيَا ثَوَابًا
وَمَا فِيهَا عَلَيْكَ لَمَا وَهَبْتُكْ
فَقَدْتُكَ فَافْتَقَدْتُ لَذِيذَ نَوْمِي
وَطِيبَ مَعِيشَتِي لَمَّا فَقَدْتُكْ



صفحة من مصحف مخطوط بالذهب على رق ازرق من آثار المكتبة العتيقة بجامع عقبة وقد كتب في هذه الصفحة

ارايتم ان جعل الله عليكم الليل والنهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ويوم يناديهم فيقول اين شركائى الذين كنتم تزعمون . ونزعنا من كل امة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون . ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما

سقوط الدولة الاغلبيــة

لما اشتدت ريبة الخلفاء العباسيين فى العلويين ومن ينتمى اليهم من فرق الشيعة بعد الانتفاضات التى حصلت من بعض زعمائهم فى المدينــة والبصرة امثــال محمد بن عبد اللــه المعروف « بالنفس الزكيــة » واخيه ابراهيم ، اضطر بنو العباس الى نبذ فكرة التشيع التى أسسوا عليها دولتهم • فكان رد فعل العلويين اثارتهم الشغب ومحاولتهم قلب الدولة العباسيــــة •

ففى سنة 169 • خرج ادريس بن عبــد الله الشيعى الى المغرب يبث مذهب الشيعة فى صبغة دينية ، حتى التفت حوله جموع البربر وبايعوه بالخلافة • فاسس هناك دولة الادارسة • فما وسع الرشيد الا ان بعث بافريقية دولة الاغالبة ، كما يفعل من رأى حريقا بجزء من داره ، فيفصل بين ما تناولته النار وبين سائر الدار •

فكانت دعوة ادريس فى المغرب الى الشيعة مؤذنة باحتلال شيعى منتظر • سيما وقد سنوا نظاما خاصا عرف بنظام الدعوة ، وبعثــوا دعاتهم الى جميع الاقاليم الاسلامية شرقا وغربا •

ولما تهيأ لهم الامــر اشعلوا نــار الثورة فى الشرق على يــد « القرامطة » فزلزلوا كيان الدعوة العباسية •

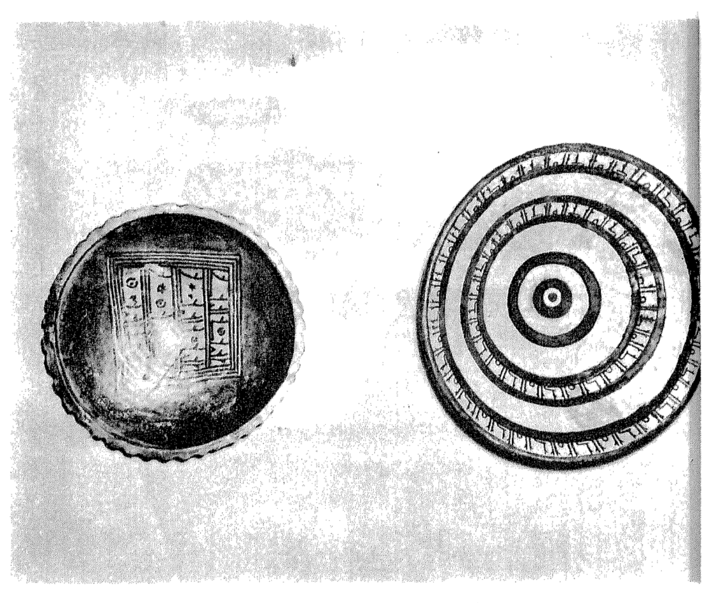
ثم قام على اثرهم الفاطميون بافريقية بعد ان مهد لهم احــد دعاة الشيعة المقتدرين ابو عبد الله الصنعانى • وقــد ذكر ابن دينــار ان الصنعانى اخذ اسرار الدعوة الفاطمية عن ابن حوشب وارسله الى المغرب فقدم الى مكة ايام الحج ، واجتمع باهل كتامة من المغاربة فجلس اليهم وحدثهم عن فضائل اهل البيت النبوى ، فانسوا به ومالوا اليه وسالوه عن قصده ، فاظهر لهم انــه يريد مصر قصد التعليــم • فسألوه الصحبة معهم الى بلادهم ، فاجابهم وقفل معهم الى المغرب دون ان يظهــر لهم مراده • وكــان فى اثناء ذلك يسالهم عن خبــر بلادهم ، وعشائرهم الى ان احاط بها خبرة • ولما وصلوا تنافس البربر

في اقامته عندهم ، وقدمت اليه الوفود من كل ناحية · حتى اذا فشا امره ، وانتشر خبره،ارسل اليه زيادة الله الثالث جيشا عظيما لمقاتلته ومقاتلة من انضم اليه من قبائل البربر ، فالتقى الجمعان قرب الكاف ودارت الدائرة على جيوش بنى الاغلب ، وعندئذ جمع زيادة الله اهله وماله وفر الى المشرق ·

واما الداعى ابو عبد الله الصنعانى فانه لما بلغه فرار زيادة الله دخل القيروان ، وأمن اهلها واستولى على مقاليد الحكم ثم عاد الى المغرب فانقذ مولاه عبيد الله المهيدى من معتقله بسجلماسة فى المغرب الاقصى · ونزل برقادة سنة 297 هـ فخرج اهلها للقائه وبايعوه · فاستلم زمام الحكم وتلقب بامير المؤمنين ، واليه تنسب الدولة العبيدية ·

وقد تظافرت عدة عوامل على سقوط الدولة الاغلبية كان من اهمها : تشريد ابراهيم الثانى الاغلبى لكثير من الجيوش العربية التى دخلت افريقية عند فتحها ، والتى كانت العضد الاقوى للسلطة العربية · ثم ما عرف به زيادة الله الثالث من عكوف على الخمر والملاهي واهمال لشؤون الدولة · وقد ذكر المؤرخون انه هو الذى اوعز الى ثلة من الصقالبة بقتل ابيه لانه سجنه على شرب الخمر · ولما اخذ البيعة بادر بقتلهم ليوهم الناس ببراءته ، كما قتل اعمامه واخاه محمدا ليستوثق من الملك ·

ومن ناحية اخرى ، فان الدولة الاغلبية خيبت آمال البربر ولا سيما قبائل كتامة فيما انتهجته من سياسة عربية متعصبة · وهم الذين طالما ساهموا فى الفتوحات الاسلامية ، فتاقت نفوسهم الى ان يكون لهم حظ فى الدولة · وذلك ما يفسره انضمام قبائل كتامة الى الشيعة ·



ـ خزف اغلبي عثر عليه بحفريات رقادة

العصر العبيدي

(296-361هـ)

انتصاب الدولة العبيدية

لم يدم هذا العصر اكثر من 65 سنة تعاقب فيها على الحكم اربعة من الفاطميين وهم : ابو عبيد الله المهدى، والقائم بأمرالله ابو القاسم واسماعيل المنصور ، والمعز لدين الله (الفاطمـي) · لكن الثورات العارمة التى نشبت اثنـاء تلك المدة ، والتى ارتجت لها اركـان افريقية من جراء الصراع المذهبى بين السنيين والشيعة ، وما نشـأ عن ذلك الصراع من احقـاد كبتت حينا تحت عوامل الضغط ، ثـم انفجرت فكانت المأساة ··!

كل ذلك جدير بان يوقف الباحث فى تاريخ القيروان على مواطن القوة والضعف ، ويزوده بأغلى المواعظ واثمن العبر !

لم يكد ابو عبيد الله المهدى يستقر به المقام في رقـادة حتى الفى نفسه في وضع ينذر بالخطر ، ويبعث عن الفزع من كل جانب !

قبائل كتامة وزعماؤها ينظرون الى دولته ، وكانها دولة بربرية يجب ان تكون لهم فيها اليد الطولى ، اذ اليهم يرجع الفضل فى انتصارها وانتصابها بافريقية ···

داعية الشيعة وعضده الاقوى ابو عبيد الله الصنعانى اصبح حذرا متبرما تنبىء موافقة المريبة عما يضمره من مكـر ...

اهل رقادة والقيروان ينظرون الى الشيعة نظرتهم الى اهل الشرك ، ويتربصون بهم الدوائر ···

كل هذه المخاوف اثارت الخليفة المهدى ، وحملته على استعمال كل الوسائل لارساء دولته حتى يأمن شـر الانتفاضات والحـركات المفاجئة · فقتل داعيته ابا عبيد الله ، واخاه ابـا العبـاس ، وكتب للشيعة بالمشرق « اما بعد فقد علمتم محل ابـى عبيد الله واخيه ابى العباس من الاسلام ، فاستزلهما الشيطان ، فطهرتهما بـالسيف »

ثم افاض العطاء فى كتامة واقطعهم الاعمال ، بعد ان تخلص من

بعض زعمائها وقذف الرعب في القلوب ، اذ بطش بمن عارض دعوته من اهل القيروان ورقادة ·

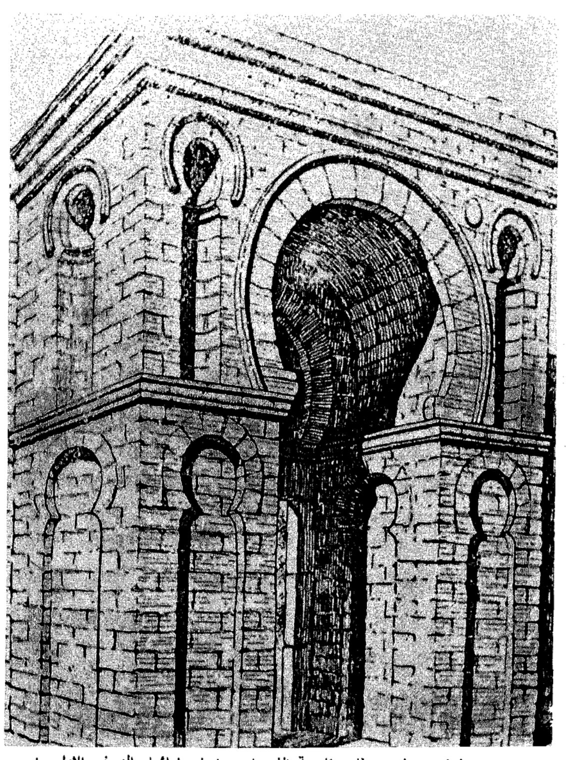
واتخذ لحراسته الوف العبيد من الروم والحبش ·

وبذلك سكنت كل الحركات المعادية ، ولكن سكون الجو قبيل العاصفة · وقد احس فعلا بهذا الخطر الكامن في القيروان معقل اهل السنة ، فقرر البعد عنها ، وخرج يجوس سواحل افريقية باحثا عن مكان امين يبنى فيه قاعدة ملكه ، فانتهت به خاتمة المطاف الى شبه جزيرة تقع بين سوسة وصفاقس وقع اختياره عليها · فأمر ببنائها هنالك وسماها « المهدية » نسبة اليه

واول ما ابتنى منها سورها الغربى ، ثم مرسى المدينة ، ودارا لصناعة السفن ·

وعندما تم بناؤها سنة 308 انتقل اليها ، وجعلها قاعدة للخلافة العبيدية ، وابتنى بها جامعها الشهير ، وقصرا لولى عهده ابنه ابى القاسم ·

ولما تولى حفيده اسماعيل المنصور عاد الى القيروان وابتنى بالقرب منها مدينة سماها « المنصورية » وتعرف اليوم (بصبرة) واتخذها قاعدة للخلافة وذلك سنة 337 · وقد نقل اليها المنصور اسواق القيروان ومصنوعاتها وانشأ حولها الحدائق والبساتين ·



ـ المدخل لرئيسى القديم لجامع المهدية الذى اسسه فى اوائل النصف الاول من القرن الرابع هـ . مؤسس المهدية أبو عبيد الله المهدى

ثورة صاحب الحمــــار

ان من اعنف الثورات التي استفحل شرها بافريقية ثورة ابى يزيد مخلد بن كيداد • يدعى « صاحب الحمار » نشأ بتوزر ، ولزم بهــا مسجدا يعلم الاطفال ، وكان يركب الحمار ويلبس الصوف ، ويتظاهر بالورع والتقوى ، ويزعم انه يدعو الى الحق ، ويذب عن الدين ، ويقاوم بدع الشيعة ! فخدع البربر واستمال قلوبهم ، حتى قويت شوكته وتكاثر أتباعه ، فأرسلهم الى مدينة تونس ، ودخلوها عنوة ، وسبوا النساء ، وقتلوا الاطفال ، ونهبوا الاموال ، وهدموا المساجد ، ثم تحولوا الى باجة فعاثوا فيها فسادا ، وانتقلوا الى « فحص ابى صالح » قرب زغوان ، فوجه اليهم القائم بامر الله جيشا عظيما لمقاتلتهم ، فانهزموا شر هزيمة وقتل منهم اربعة آلاف ، وأسر خمسمائة ، وشرد الباقون فأعــاد أبو يزيد الكرة ، وهيأ جموعا اخرى ، قيل انها بلغت مائة الف بين فارس وراجل ، وزحف بهم الى القيروان ، فاستباحوا الحـرمات ، وفتكـوا بأهلها وتوعدهم ابو يزيد معلنا « ان من تخلف منهم عن الجهاد معه حل دمه وماله » فنفر معه الكثير تحت تاثير الخوف والارهاب ، وجعل يبعث سراياه الى جميع بلاد افريقية والحصون التى بها على البحر ، لنهـب ما فيهـا مـن اقـوات وسـلاح ، ثم بعث جيشـا الى سوسة فحاصرها وزحف الى المهدية ، فأحكم حصارها زمنا طويلا حتى اشتد الغلاء ، وانتشرت المجاعة ، وعظم البلاء •

وفى تلك الاثناء توفى القائم بامر الله ، وتولى بعده ابنه المنصور ، فكتم موت ابيه ، وسخر جهود الدولة للقضاء على ثورة الطاغية ابـى يزيد ، واستنفر قبائل كتامة ، وباشر معهـم القتـال بنفسه ، حتى شتت جموعه ، وظفر به مثخنا بالجراح ، فحبسه فى قفص ، وأمر ان

يطاف به فى القيروان ، ثم حمل الى المهدية وصلب على بابها وذلك سنة 336 · فثار بعده ابنه « فضل » فوجه اليه المنصور زيرى بن منـاد فى جمع من قومه فقتلوه ·

ان هـــذه الثورات التى نكبت افريقيـــة فخربتهـــا وشغلـــت اهلها وملوكهـــا فترات طويلة عن الاخذ باسباب الحضارة والتقـدم وقضت على الكثير من المنشآت الحضرية والعمرانية واجتثت اصول الرفاهة التى لاتنبت ولا تؤتى ثمارها الا فى ظل الاستقرار والامن ، يؤاخذ عليها تاريخيا بعض قبائل البربر من ابناء افريقية الذين كانوا لسذاجتهم مرتعا خصيبا للدعاة الخارجين على الدولة · وقد وصفهـم ياقوت « بانهم اسرع خلق الله الى الفتنة ، واطوعهم لداعية الضلالـة وأصغاهم لنمق الجهالة ، ولم تخل اجيالهم من الفتن وسفك الدماء·فكم زاعم فيهم انه المهدى الموعود به فأجابوا دعوته ، ولمذهبه انتحلوا ، وكم دعى فيهم مذهب الخوارج فالى مذهبه بعد الاسلام انتقلوا ! »

انتقـــال الخلافـــة الى مصر

كثيرا ما حاول أبو عبيد الله المهدى اقناع اهل افريقية بالرأى فندب الى علمائها اعلام الشيعة لمساجلتهم فباءوا بالفشل · فجنح الى القـوة واراقة الدماء ، فلم يتحول الناس عن رأيهم وحكمهم على التشيع بأنـه مروق عن الدين ·

ذكر ابن ناجى فى معالم الايمان انه لما ملك بنو عبيـــد القيـروان اجتهدوا فى تبديل مذهب اهل البلد،وجبروا الناس على مذهبهم بطريق المناظرة ، وقتلوا رجلين من أصحاب سحنون ، فارتاع الناس ، ولجأوا الى سعيد بن محمد الغساني المعروف « بابن الحداد » وكان من الفقهاء النابهين ومن أبرعهم فى الجدل والرد على الشبهات ـ فقال : : لقـد أربيت على التسعين ومالى فى العيش من حاجة · وقتيل الخوارج خير قتيل · ولا بد لى من المناضلة عن الدين حتى ابلغ فى ذلك عذرا ··

ان ذلك يدلنا على أن المساجلات التى كانت تدور بين السنيين والشيعة كثيرا ما تعرض اهل السنة الى الاضطهاد والتنكيل ·

فهذا الفقيه ابو بكر محمد ابن اللباد ، لم يذعن لرأى القوم ولم يكف عن تفنيد حججهم ، فعوقب بالسجن وبقى به الى ان مات سنة 333

وهذا ابن الحداد يتكلم يوما عن السنة فيغضب لكلامه ابو موسى الشيعى ، ويقوم اليه بالرمح ليطعنه ، لولا ان ابا عبيد الله الشيعى يصده عن ذلك ويقول لابن الحداد : لاتغضب هذا الشيخ لانه يثور لغضبه اثنا عشر الف سيف ، فيجيبه ابن الحداد : ولكنى انا يغضب لغضبى الله الواحد القهار الذى اهلك عادا وثمودا واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ·

وانقضت ايام المهدى فتولى بعده القائم والمنصور واستمرت الجيوش العبيدية تجوس خلال المغرب ، ولكن بدون جدوى · اذ لاسبيل لدولة ان تفرض نفسها على شعب يقاطعها ويعيش فى عزلة عنها · وهذا هو الحافز على انتقال المعز لدين الله الفاطمى من افريقية الى مصر · وقد شجعه على المضى فى هذا العزم اختلال الامن فى مصر ، واضطراب أحوالها بعد وفاة ملكها كافور الا خشيدى ، ثم ما عرف به احد مواليه « جوهر الصقلى » من شجاعة نادرة وبطولة فائقة ، وهو الذى شق بجيوشه المغرب الاقصى ، واستولى على فاس ، وأغرق من اعترض سبيله فى لجة من الدماء ·

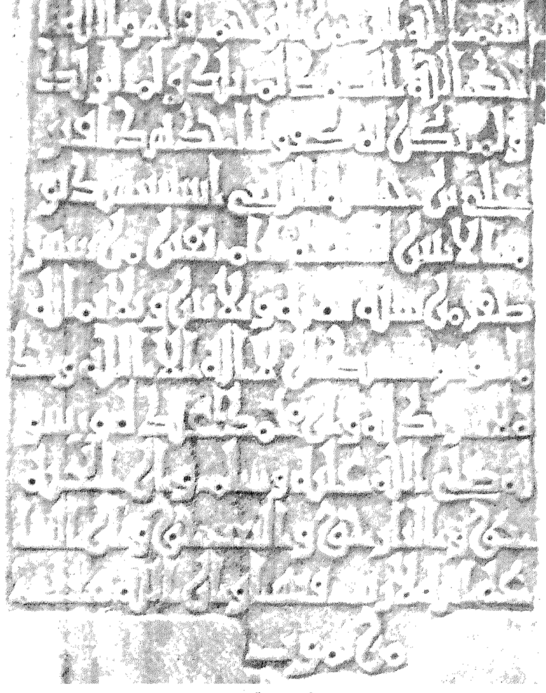
ويعلل بعض المؤرخين انتقال الخلافة العبيدية الى مصر بفقر البلاد وعجز مواردها عن القيام بشؤون دولة عظيمة ميالة الى حياة البذخ والترف · ولكن هذا السبب لايؤيده التاريخ · فقد ذكر ابن خلدون « ان جوهر الصقلى قائد جيش العبيدين لما ارتحل الى مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال لارزاق الجنود ونفقات الغزاة · ولاتنتهى اليوم دولة الى مثل هذا » ولما دخل جوهر بلاد مصر فرت الجيوش الاخشيدية فدخلها بدون مقاومة واختط الى جانبها مدينة سماها « القاهرة المعزية »

وفى سنة 361 خرج المعز من المنصورية فى موكب حافل لم يعرف له مثيل ، وعهد لابى الفتوح بلكين بن زيرى من قبيلة صنهاجة البربرية بامارة افريقية جزاء ما قدمه هو ووالده زيرى من خدمات فى سبيل تدعيم الدولة العبيدية • وأوصاه بثلاث : أن لا يرفع السيف على البربر وأن لايرفع جباية على البادية ، وأن لايولى أحدا من أهـل بيتـه حتى لايروا أنهم أحق بهذا الأمر منه •

ثم جعل على صقلية حسن بن على ، ولم يجعلها فى حوزة ابى الفتوح حيطة منه ، وحذرا من السيطرة البحرية ان أصبحت لغيره • كما جعل على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامى •

وقد علق ابن خلدون على حدث انتقال الخلافة الى مصر فقال :

« وكان هذا آخر عهد العرب بالدولة والملك فى افريقية واستقلت كتامة بالامر من يومئذ ، ثم من بعدهم برابرة المغرب ، وذهب ريح العرب ودولتهم من المغرب وافريقية »



شاهد قبر

استشهد صاحبه فى نفس السنة التى هاجم فيها صاحب الحمار مدينة القيروان ، وقد نقش عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله احد . الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد

هذا قبر على بن حباسة الربعى استشهد يوم الاثنين لسبعة ايام بقين من شهر صفر من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . مات وهو يشهد ان لااله الا الله وحده لا شريك له . وان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وان الجنة حق والنار حق والبعث حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من يموت

الحركة العلميـــة

لما بسطت الدولة العبيدية سلطانها على افريقية ، أقبل دعاة الشيعة يبثون مذهبهم بكل ما أوتوا من بيان وحجة ، تشد الدولــة أزرهم ، وتحميهم من كل تهجم أو رد فعل · وكانت القيروان تزخر بالعلمـــاء الذين صلبت قناتهم فى الدين ، ولم يغن فيهم وعد ولا وعيــد · فلم يقفوا موقفا سلبيا ازاء هذه الحملة الدعائية التى أخذ يتسرب مفعولها الى البربر ، بل تصدوا للمعارضة وتفنيد آراء الشيعة بالنقد والتجريح، رغم ما تعرضوا له من عسف واضطهاد · فنشأت عن تلك المساجلات والخصومات الكلامية بين الطائفين حركة علمية دينية شحذت الاذهان وحركت الاقلام ···

ومما ابتدعه الشيعة فى الدين قولهم بعصمة الايمة من آل فاطمة · فكان من دعاء ايمتهم فى خطبة الجمعة « اللهــم صل على محمــد النبى المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، وعلى الايمة الراشـــدين آباء أمير المؤمنيـــن اهاديـــن المهديين » وقد روى ابن ابى الضياف أن عبيد الله المهدى جمع الفقهاء فى رقادة وأمر أن يضاف هذا الدعاء فى الجمع والاعياد

« اللهم صل على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك فى بلادك أبى محمد عبيد الله الامام المهدى بالله ، أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون · اللهم وكما اصطفيته لولايتك واخترته لخلافتك ، وجعلته لدينك عصمة وعمادا ، ولبريتك موئلا وملاذا فانصره على أعدائك المارقين ، وافتح له مشارق الارض ومغاربها كما وعدته ، وأيده على العصاة الضالين · انك أنت الحق المبين »

ومن آراء الشيعة فى الدين أن له ظاهرا وباطنا وأن لنصوصه معنى صريحا ومعنى مؤولا · وفى ذلك يقول المؤيد الشيرازى داعى الدعاة :

وَرُبَّ مَعْنَى ضَمَّهُ كَلاَمُ   كَمِثْلِ نُورٍ ضَمَّهُ ظَلاَمُ
بَاقٍ بَقَاءَ الحَبِّ فِي السَّنَابِلِ   فِي مَعْقَلٍ مِنْ أَحْرَزِ المَعَاقِلِ
وَإِنَّمَا بَابُ المَعَانِي مُقْفَلُ   واكثرُ الأَنَامِ عَنْهُ غُفَّلُ

ومن نظرياتهم أن الانبياء اصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة ، وأن الفلاسفة هم انبياء حكمة الخاصة

ومن ثم كان لدعوة الشيعة مجالس للعامة ومجالس للخاصة ٠

ورد فى صبح الاعشى أن المعز الفاطمى قال لداعى الدعاة فى كتاب له:

« صن اسرار الحكم الا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل افهامهم بتقبله ٠

ولا تلق الوديعة الا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب الا فى مزرعة لا تكدى على الزراع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس »

فاين مذهب مالك المحدود بالنقل ، وما امتاز به من التزام القرآن والحديث ، وتجنب التأويل ما أمكن ، والاقتصاد فى القياس ، وتقديم النقل على العقل فى القضايا والاحكام ، من مذهب الشيعة المتشعب ، وما اعتمده من اصول غريبة ، وتأويلات بعيدة ، وباطنية غامضة ٠٠ ؟

ثم ما اشد الفرق بين فقهاء القيروان الذين أخذوا على انفسهم الاقتداء بمالك فى كل شيء ، والعمل بما كان يوصى به ، وبين فقهاء الشيعة الذين يظهرون فى أثواب مختلفة ويحادثون كل طبقة باللغة التى يفهمونها ، ويحتكمون الى العقل والقياس ويبررون كل مسعى يهدف الى طاعة امرائهم ، وكل عمل يرمى الى نشر مذهبهم ٠٠!

قال ابن هانيء فى مدح المعز :

لَوْلاَكَ لَمْ يَكُنِ التَّفَكُّرُ وَاعِظاً
وَالعَقْلُ رُشْداً وَالقِيَاسُ دَلِيلاَ

لَوْ لَمْ تَكُنْ سَكَنَ البِلاَدِ تَضَعْضَعَتْ
وَتَزَايَلَتْ أرْكَانُهَا تَزْيِيلاَ

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن الشيعة وان لم تجد بافريقية تربة خصبة لانمائها ، لاعراض معظم فقهاء القيروان عنها ، فقد وجدت من بعض فقهائها آذانا صاغية وقلوبا واعية ، فتشيعوا ووقفوا على اسرار تعاليم الشيعة ، وبرعوا فى الدعوة اليها والتاليف عنها ، ولما انتقل المعز الى القاهرة خرجوا مع ركبه . وكان من أشهرهم عبيد الله بن الحسن القيرواني الذى صار أحد زعماء الاسماعيلية وقد كتب الى احد دعاة المذهب : «اذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا»

ثم النعمان بن محمد بن حيون الذى كان مالكى المذهب ثم انتقل الى مذهب الامامية . وتولى قضاء مصر هو وأولاده عهدا طويلا فى الحكم الفاطمى .

ويذكر ابن زولاق أنه ألف لاهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تاليف وأملح سجع . وكان فى غاية الفضل . من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، عالما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء ، وباللغة والشعر ، عارفا بايام الناس مع عقل وانصاف . وله ردود على المخالفين له . رد على ابى حنيفة ومالك »

ثم ابنه محمد بن النعمان فقد تولى قضاء مصر فى عهد المعز والعزيز ، وكان واسع العلم فى الفقه والتاريخ والنجوم ، يزدحم الناس على سماعه .

ثم ابنه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، فقد كان من أعلم الناس بفقه الامامية . ذكر ابن كثير : « انه الف فى العقائد الشيعية الكتاب المسمى « البلاغ الاكبر والناموس الاعظم » وقد رد على هذا الكتاب ابو بكر الباقلانى » .

وبالجملة فقد نشطت الحركة العلمية في العصر العبيدي واتسمت بالحيوية وذلك بفضل الجدل والمناظرة ، ثم ازدهار بيت الحكمة التي واصلت اداء رسالتها العلمية منذ أن انشأها الاغالبة ، الى أن نقل الفاطميون تراثها العلمي بانتقال خلافتهم الى القاهرة ، ورحل معهم من رافقهم من علماء افريقية .

ورد في خطط المقريزي : أنه كان بقصر الخليفة الفاطمي العزيز بن المعز لدين الله أربعون خزانة فيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي الف كتاب في الفقه والنحو واللغة والتاريخ والتنجيم والكيمياء . ومن بينها خزانة تحوي ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة كالفلسفة والطب والالهيات عدا الكتب الاثرية التي كتبت بخطوط مؤلفيها . وقد أسس الحاكم بأمر الله الذي تولى الخلافة بعد العزيز دارا حمل اليها الكتب من خزائن القصر ، وفتحها لسائر الناس ، ممن يؤثر التعلم او قراءة الكتب ، وسماها دار الحكمة .

ولا شك أن الكثير من تلك الكتب نقل من بيت الحكمة في القيروان الى القاهرة .

على أن نزوحها ، وان حرم افريقية من ثروة علمية ثمينة ، فقد سرى تأثيرها على مدى السنين في العقلية المغربية ، وكان لاشعاعها الاثر البالغ في ازدهار الحركة العلمية والادبية بافريقية خصوصا في العصر الصنهاجي .

أما المكتبة العتيقة التي انشئت في عهد الاغالبة باحدى حجرات جامع عقبة فقد زهد فيها الفاطميون ولم يرفعوها معهم الى مصر ، وذلك لانها لم تحو الا مصاحف مزخرفة ، أو كتبا في الحديث ، أو في الفقه المالكي .

مساجلة علميـــة

ومن المساجلات العلمية بين دعاة الشيعة وفقهاء المالكية ما رواه محمد بن الحارث فى كتاب طبقات علماء افريقية أن مجلسا تناظر فيه ابو عثمان سعيد بن الحداد ، وأبو العباس المخدوم الشيعى :

قال ابو العباس الشيعى : ألم يقل النبىء صلى الله عليه وسلم : على أفضلكم

ابو عثمان : وفى الحديث : ومعاذ أعلمكم بالحـلال والحـرام ، وعمر : اقواكم فى دين الله ·

ابو العباس : كيف يكون عمر أقواكم فى دين الله ، وقـد هرب بالراية يوم حنين ؟ !

أحد السنيين : ما سمعنا بهذا ولا نعرفه !

أبو عثمان : لقد انحاز الى فئة كما انزل الله عز وجل :

« الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة » ومن تحيز الى فئة فليس بفار وأى فئة أكبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ابو العباس : أنتم تبغضون عليا يا أهل المدينة !

أبو عثمان : على مبغض على لعنة الله والملائكة والناس اجمعيـن · وكيف أبغض عليا وقد سمعت سحنونا ـ وهو امام اهل المدينة بالمغرب ـ يقول :

على بن أبى طالب امامى فى دينى ، اهتدى بهديـه ، وأستـن بسنته رحمة الله عليه ·

أبو العباس : بل صلوات الله عليه ·

أبو عثمان : ـ وقد رفع صوته ـ ان الصلاة فـي كـلام العـرب الدعاء قال الأعشى :

تقـول بنتى وقـد قـربت مـرتحلا
يـارب جنـب أبى الأوصاب والوجعـا
عليـك مثل الـذى صليت فاغتمضى
نومـا فـان لجنب الارض مضطجعـا

نـعم ! فصلى الله على عـلى بن أبى طالب والحسن والحسين وأهل طاعة الله أجمعين من أهل السماوات والأرضين ٠

أبو العباس : أليس على مولاك ؟ يقول النبىء :
اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ٠

أبو عثمان : هو مولاى بالمعنى الذى أنابه مولاه ٠ لأن المولى فـى كلام العرب متصرف ٠ يكون المولى عز وجل ٠ ويكون ابن العم . ويكون المعتق . ويكون المنعم عليه ٠ قال الله تعالى : ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم ٠ وقال فى المؤمنين : بعضهم أولياء بعض ٠ فعلى مولى المؤمنين لأنه وليهم ٠ وهو مـولاى بالمعنى الذى أنا به مـولاه ٠

أبو العباس : فالحديث الآخر : أنت منى بمنزلة هرون من موسى.

أبو عثمان : هارون كان حجة في حياة موسى ، وعلى لم يكن حجة فى زمان محمد ، ولم يكن بأخيه ٠ وانما كان له وزيرا ٠ والمؤمنون وزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

ومن أشهر علماء القيروان فى هذا العصـــر :

عبدالله بن أبى زيد النفــزاوى

ولـــدبالقيروان سنة 310 ونشأ فى طلب العلم ، فبرع فى علوم الشريعة وكان جيد الفهم ، كثير الرواية ، بصيرا بالرد على أهـــل الأهواء • وقد ذاع صيته واشتهر علمه حتى لقب بمالك الأصغر ، ورحل اليه العلماء للأخذ عنه •

ومن أشهر تآليفه « الرسالة » كتب نسخة منها وأرسلها الى أبى بكر الأبهرى ببغداد أحد أعلام فقهاء المالكية فأثنى عليها وعلى مؤلفها وأشاع خبرها فى الناس ، فبيعت بوزنها دنانير وأحسن بثمنها الى القادم بها • ومن تآليفه كتاب النوادر ، وكتاب الزيادات على المدونة وكتاب مختصر المدونة ، وكتاب الذب عن مذهب مالك •

وكان كريما كثير البذل للفقراء ، ينفق على الغرباء من تلاميـــذه ، ويقوم بجميع شؤونهم من مسكن ومأكل وملبس • وقد توفى وعمره 76 سنة وضريحه معروف بالقيروان •

ومن شعره يرثى شيخه أبابكر محمد ابن اللباد الذى اضطهده الفاطميون لأنه لم يتابعهم فى آرائهم وزجوا به فى السجن الى ان مـــات بـــه •

يَطُــولُ شَوْقِــي إلى مَــنْ غَــابَ مَنْظَــرُهُ
وَذِكـرُهُ فِي جَوَى الاَحْشَاءِ قَـدْ سَكَنَـا
لَهْفِــي عَلَى مَيِّتٍ مَاتَــتْ بِــهِ سُبُـــلُ
قَـدْ كـانَ أَحْيَـا رُسُـومَ الدِّيـنِ وَالسُّنَنَـا
كَـمْ مِحْنَـةٍ طَرَقَتْـهُ فِي الإلَـهِ فَلَـمْ
يَحْزَنْ لِذَلِكَ إذْ فِي رَبِّـهِ امْتُحِنَـا



ـ آثار غرفة في قصر للعبيديين بالمنصورية

الحركـة الادبيـة

لقد أقيمت الدولة العبيدية على أساس الدعوة والدعاية وكان الشعر يومئذ يقوم مقام الصحف السيارة في العصر الحديث فكان من الطبيعي أن يجد الشعراء حظوة لدى العبيديين وأن يغدقوا عليهم العطاء الوفير ليطلقوا ألسنتهم بمدحهم وتمجيد مذهبهم ٠

وكان في طليعة هؤلاء من شعراء المغرب ابن هانىء ٠ فقد مدح المعز بغرر القصائد وعيون الشعر ، فبالغ المعز فى الانعام عليه ٠ روى انه لما أنشده فى القيروان أحد قصائده ، أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ٠ فقال له : يا أمير المؤمنين ! ما لى موضع يسع الدست اذا بسط ٠ فأمر له ببناء قصر أنفق عليه ستة آلاف دينار ٠

وكان ابن هانىء يغالى فى المدح حتى الافراط والاحالة والكفر كقوله فى مدح المعز وقد انتصب على عرش الخلافة بمصر :

مَا شِئْتَ لاَ مَا شَاءَتِ الاَقْدَارُ
فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَّارُ
وَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيءُ مُحَمَّدٌ
وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الانْصَارُ
أَنْتَ الذِي كَانَتْ تُبَشِّرُنَا بِهِ
فِي كُتْبِهَا الاَحْبَارُ وَالاخْبَارُ
هَذَا الذِي تُجْدِي شَفَاعَتُهُ غَدَا
حَقًّا وَتَخْمُدُ أَنْ تَرَاهُ النَّارُ

ومن الأغراض التى تناولها الشعر الفاطمى الدعوة الى التشيع ومدح آل البيت النبوى والتنويه بشرف الانتساب اليهم كقول شاعرهم:

أبْنَاءَ فَاطِمَ ! هَلْ لَنَا فِي حَشْرِنَا
لَجَأٌ سِوَاكُمْ عَاصِمٌ وَمَجَارُ
أنْتُمْ أحِبَّاءُ الإلَهِ وآلُهُ
خُلَفَاؤُهُ فِي أرْضِهِ الأبْرَارُ
أهْلُ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وَالهُدَى
فِي البَيِّنَاتِ وَسَادَةٌ أطْهَارُ
إنْ قِيلَ : مَنْ خَيْرُ البَرِيَّةِ ؟ لَمْ يَكُنْ
إلاَّكُمُ خَلْقٌ إلَيْهِ يُشَارُ
لَوْ تَلْمَسُونَ الصَّخْرَ لاَنْبَجَسَتْ بِهِ
وَتَفَجَّرَتْ وَتَدَفَّقَتْ أنْهَارُ

وكقول الآخر :

لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمِثْلِ عَلِيٍّ
هَلْ تُقَاسُ النُّجُومُ بِالأقْمَارِ ؟
مَنْ لَهُ الطُّهْرُ وَالمُوَاسَاةُ وَالنُّصْـ
ـرَةُ وَالحَرْبُ تَرْتَمِي بِالشَّرَار

وظاهرة أخرى تفوق بها شعرهم الوجدانى علىالشعراء المتمسكين بالسنة ، هى التحرر من قيود البيئة الدينية ، التى اثرت على شعراء أفريقية فى العصر الأغلبى ، فقيدت ألسنتهم عن الهزل ، وكبتت عواطفهم عن الانطلاق ، وصدت خيالهم عن الابتداع ... ومن ثم امتاز شعر الشيعة برقة الطبع وسعة الخيال وجمال الصوغ خصوصا فى الغزل كقول ابن هانىء :

عَيْنَاكِ أمْ مَغْنَاكِ مَوْعِدُنَا وَفِي
وَادِي الكَرَى أَلْقَاكِ أمْ وَادِيكِ
مَنَعُوكِ مِنْ سِنَةِ الكَرَى وَسَرَوْا ، فَلَوْ
عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقٍ ظَنُّوكِ
وَدَعَوْكِ نَشْوَى مَا سَقُوكِ مُدَامَةً
لَمَّا تَمَايَلَ عِطْفُكِ اتَّهَمُوكِ
حَسَبُوا التَّكَحُّلَ فِي جُفُونِكِ حِلْيَةً
تَاللَّهِ مَا بِأكُفِّهِمْ كَحَلُوكِ

وكقول تميم ابن المعز لدين الله الفاطمي :

قَالَتْ وَقَدْ نَالَهَا لِلْبَيْنِ أَوْجَعُهُ
وَالبَيْنُ صَعْبٌ عَلَى الأَحْبَابِ مَوْقِعُهُ
اجْعَلْ يَدَيْكِ عَلَى قَلْبِي فَقَدْ ضَعُفَتْ
قُوَاهُ مِنْ حَمْلِ مَا فِيهِ وَأَضْلُعُهُ
كَأنَّنِي يَوْمَ وَلَّتْ حَسْرَةً وَأَسَى
غَرِيقُ بَحْرٍ يَرَى الشَّاطِي وَيُمْنَعُهُ

ولهذا الشاعر المطبوع اوزان شعرية ظريفة فى الغزل . كقوله :

وَأَحْوَرَ سَاحِرِ الطَّرْفِ يَفُوقُ جَوَامِعَ الوَصْفِ
مَلِيحِ الدَّلِّ وَالظَّرْفِ جَنَتْ أَلْحَاظُهُ حَتْفِي
فَمَنْ يُعْدَى عَلَى الظَّالِمِ ؟
يُعَنِّفُنِي عَلَى حُبِّي وَيَهْجُرُنِي بِلاَ ذَنْبِ

كَـأنّـِي لَسْتُ بِالصَّبِّ لِحُسْنِ حَدِيثِهِ العَذْبِ
أمَا فِي الحُبِّ مِنْ رَاحِمٍ ؟

وهذا على بن ابى حنيفة النعمان القيروانى كان مـن أشهر علماء المالكية ثم أصبح شيعيا ، فدرس الفلسفة والمنطق والجدل وتولى قضاء مصر فى عهد المعز وابنه العزيز ، ولكنه لايتورع عن ذكر ما لايسمح بذكره السنيون فى الغزل ، اذ يمزج بين الجد والهزل فى موقف تخشع فيه القلوب لله ، وتشغل بذكره عمن سواه فيقول :

رُبَّ خَوْدٍ عَرَفْتُ فِي عَرَفَاتِ
سَلَبَتْنِي بِحُسْنِهَا حَسَنَاتِي
حَرَّمَتْ حِينَ أحْرَمَتْ نَوْمَ عَيْنِي
وَاسْتَبَاحَتْ حِمَايَ بِاللَّحَظَاتِ
وَأفَاضَتْ مَعَ الحَجِيجِ فَفَاضَتْ
مِنْ جُفُونِي سَوَابِقُ العَبَرَاتِ
وَلَمَّا أضْرَمَتْ عَلَى القَلْبِ جَمْرا
مُحْرِقا إذْ مَشَتْ إلىَ الجَمَرَاتِ

وكان فى بلاط المعز بالمهدية شعراء كثيرون منهم على بن الايادى التونسى ، وعلى بن عبد الله التونسى ، ومقداد بن الحسن الكتامى .

وكان ابن هانىء يفخر على هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، ويستصغر منزلتهم منه فيقول :

تَخُبُّ إلىَ مَيْدَانِ سَبْقِي بِطَاؤُهَا
وَتِلْكَ الظُّنُونُ الكَاذِبَاتُ الاَوَافِكُ

تُسِيءُ قَوَافِيهَا وَجُودُكَ مُحْسِنٌ
وَتُنْشِدُ إرْنَانا وَمَجْدُكَ ضَاحِكُ

كما اشتهر من ادباء القيروان فى هذا العهد ابو العرب التميمى صاحب كتاب « طبقات علماء افريقية » وكتاب « فضائل مالك بن أنس » وقد سجنه العبيديون لتطاوله على مذهب الشيعة · وكان نسابة مؤرخا وحافظا للادب واللغة

وأبو القاسم الفزارى أحد شعراء القيروان المجيدين

وقد أنشد المنصور العبيدى قصيدة أورد فيها أخبار الجاهلية والاسلام ، وقال يفخر ببلدة القيروان

فَهَلْ لِلقَيْرَوَانِ وَسَاكِنِيهَا
عَدِيلٌ حِينَ يَفْتَخِرُ الفَخُورُ ؟
بِلاَدٌ مِلْؤُهَا عِلْمٌ وَحِلْمٌ
وَإسْلاَمٌ وَمَعْرُوفٌ وَخَيرٌ
عِرَاقُ الشَّامِ يَغْدَادٌ وَهَذِي
عِرَاقُ الغَرْبِ بَيْنَهُمَا كَثِيرُ

فَـاذَا عَفَـا لَـم تَلْقَ غيـرَ مُمَلَّـــك
وإذَا سَطَـا لَـم تَلْـقَ غَيْرَ مُظَفَّـــر
وَكَفَـاكَ مِـنْ حُـبِّ السَّمَاحَةِ أنَّهَـا
مِنْـهُ ، بِمَوْضِـعِ مُقْلَةٍ فِي مِحْجَـرِ
فَغَمَـامُهُ ، مِنْ رَحْمَـةٍ ، وَعِـرَاصُهُ
مِنْ جَنَّـةٍ ، وَيَمِينُـهُ مِـنْ كَـوْثَـرِ

وقال يرثى ولد ابراهيم بن جعفر فى قصيدة طويلة :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفِيسا فَاسْتَرَدْ رُبَّمَا جَـادَ بَخِيلٌ فَحَسَدْ
خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَانا دَائِما تُعْرَفُ البَأْسَاءُ مِنْهُ وَالنَّكَدْ
فَاذَا مَا كَدَرُ العَيْشِ نَمَـا وَإذا مَا طَيِّبُ العَيْشِ نَفَـدْ
فَلَقَدْ ذَكَّرَ مَنْ كَانَ سَهَا وَلَقَدْ نَبَّهَ مَنْ كَانَ رَقَدْ

وقال يصف سفنا حربية اتخذها المعز ليرمى بها العدو نارا :

مَـوَاخِرُ فِي طَـامِـي العُبَابِ ، كَأنَّهَا
لِعَزْمِكَ بَأْسٌ ، أوْ لِكَفِّكَ جُـودُ
من القَادِحَاتِ النَّارَ تُضْرِمُ لِلصَّلَى
فَلَيْسَ لَهَا يَـوْمَ اللِّقَاءِ خُمُـودُ
إذَا زَفَرَتْ غَيْظا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ
كَمَا شَبَّ مِنْ نَارِ الجَحِيمِ وَقُودُ
فَأفْـوَاهُهُنَّ الحَامِيَاتُ صَوَاعِـقٌ
وَأنْفَـاسُهُنَّ الزَّافِـرَاتُ حَـدِيـدُ

محمــد بن هــانیء الازدی

كن أبوه هانیء شاعرا فی بعض قری المهدیة ، فانتقل الی الاندلس فولد له محمد سنــة 326 فی اشبیلیة ونشأ بها وكان شاعرا مطبوعا ٠ ولما اشتهر امره بالفلسفة ــ وكان أهل الاندلس یتهمــون الفلاسفــة بالزندقة والكفر ــ اشار علیه صاحب اشبیلیة «المعتمد » بالخروج من البلدة كی ینسی أمره وكان من المحظوظین لدیه ــ فخرج الی افریقیة وعمره 27 سنة ٠ ولما علم بخبره المعز الفاطمی استقدمه الی المهدیة وأكرم مثواه ٠ وقد مدحه ابن‌هانیء ورفع مكانه فی شعره . ثم لما رحل المعز الی القاهرة ، تجهز ولحق به ٠ فاستضافه ببرقة رجل من أهلها ، فاقام عنده أیامافی مجالس أنس وشراب ، ویقال انه خرج سكران فنام فی الطریق فوجد میتا وهو فی السادسة والثلاثین من عمره وذلك سنــة 363

وقد أسف المعز لما بلغه نبأ وفاته وقال : « لقد كنا نرجو أن نفاخر بهذا الرجل شعراء المشرق »

ویمتاز شعره بالاغراق فی المدیح ٠ وفی ألفاظه قعقعة ورنیــن ٠ وكان المعری اذا سمع شعره قال :

« لا أشبهه الا برحی تطحن قرونا » ویزعم انه لاطائل تحت تلــك الالفاظ ٠ وانما فعل ذلك تعصبا للمتنبی ، لان ابن هانیء كــان فی شعره للمعز ، كما كان ابو الطیب لسیف الدولة ، ینشر دعوته ، ویمجد خلاله ، ویدون وقائعه ویصف حروبه ٠ وكان معاصرا للمتنبی ٠

ومن قصید له فی المدیح ٠

صَعْــبٌ إذَا نُوَبُ الزَّمَانِ اسْتَصْعَبَــتْ
مُتَنَمِّــرٌ لِلْحَــادِثِ المُتَنَمِّـــــــرِ

ومن قصيد يمدح فيه المعز وقد استهله بالغزل ووصف الفراق :

قُمْنَ فِي مَأْتَمٍ عَلَى العُشَّاقِ
وَلَبِسْنَ الحِدَادَ فِي الأَحْدَاقِ
وَبَكَيْنَ الدِّمَاءَ بِالعَنَمِ الرَّطْـ
ـبِ المُقَنَّى ، وَبِالخُدُودِ الرِّقَاقِ
وَمَنَحْنَ الفِرَاقَ رِقَّةَ شَكْوَاهُـ
ـنَّ ، حَتَّى عَشِقْتُ يَوْمَ الفِرَاقِ

ومن قصيد له يمدح فيه جوهر الصقلى ، ويذكر توديعه عند خروجه من القيروان لما وجهه المعز لفتح مصر :

رَأَيْتُ بِعَيْنِي فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ
وَقَدْ رَاعَنِي يَوْمٌ مِنَ الحَشْرِ أَرْوَعُ
غَدَاةَ كَأَنَّ الأُفْقَ سُدَّ بِمِثْلِهِ
فَعَادَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ
فَلَمْ أَدْرِ إِذْ سَلَّمْتُ كَيْفَ أُشَيِّعُ
وَلَمْ أَدْرِ إِذْ شَيَّعْتُ كَيْفَ أُوَدِّعُ
وَكَيْفَ أَخُوضُ الجَيْشَ ، وَالجَيْشُ لُجَّةٌ
وَإِنِّي بِمَنْ قَادَ الجُيُوشَ لَمُولَعُ
فَلاَ عَسْكَرٌ مِنْ قَبْلِ عَسْكَرِ جَوْهَرٍ
تَخُبُّ المَطَايَا فِيهِ عَشْراً وَتُوضِعُ
تَسِيرُ الجِبَالُ الجَامِدَاتُ لِسَيْرِهِ
وَتَسْجُدُ مِنْ أَدْنَى الحَفِيفِ وَتَرْكَعُ



ـ أطلال قصر للعبيديين بصبرة المنصورية . القرن الرابع هجري

العصر الصنهاجي

(361 - 555هـ)

الأمراء الصنهاجيون

لما ازمع المعز لدين الله الفاطمي على الرحيل الى مصر اختار أحد ابناء زيري بن مناد ليخلفه في بلاد افريقية ، فاستعمل عليها **يوسف بلكين** بن زيري بن مناد ، من صنهاجة البربرية التي اعربت عن تأييدها للمذهب الشيعي ، وولائها للخلفاء العبيديين ، وكانت سيفا مسلطا على الخارجين عن طاعتهم ٠

وكان زيري ذا قوة وبأس ، وشدة ومراس ، وقد أبلى البلاء الحسن مع قومه في قمع ثورة صاحب الحمار ، واخماد ثورات زناتة البربرية التي كانت بينها وبين الصنهاجيين احن قديمة ، وحروب طويلة ٠

ولولا اقدام زيري وبسالة جيشه لما تمكن جوهر الصقلي من القضاء على ثورة الزناتيين في أقاصي المغرب ، ولا من فتح مدينة فاس !

من أجل ذلك بوأ الخليفة الفاطمي البيت الصنهاجي للولاية ٠

وحينما عاد يوسف من وداع المعز ، أقام بالمنصورية شهرين يباشر الاعمال ، ويعقد الولايات للعمال على البلاد ٠ وما لبث ان عاد الى آشير،عاصمة صنهاجة لاخماد الثورات التي أشعلتها زناتة في جميع أطراف المغرب ، ولكنه استطاع أن يضرب على أيدي الخارجين ، حتى قويت شوكته ، وهابه الناس ٠ وقد اتخذ قاعدة ولايته مدينة « آشير » التي بناها والده زيري في جبال القبائل بالقطر الجزائري،ليكون بالمرصاد من قبائل زناتة التي استحكمت الوحشة بينها وبين قبائل صنهاجة ٠

ومن منشآته العمرانية ، مليانة ، والجزائر ، والمدية ٠

ثم ولي الامر بعد وفاته ابنه « **المنصور** » فكان مقامه بآشير وبها أخذ البيعة ، ويذكر ابن الاثير أنه حينما جلس للعزاء بأبيه قدم اليه العلماء والقضاة والسراة من القيروان وسائر البلاد يعزونه ويهنئونه ، فأحسن

لقاءهم ، وقال لهم : « ان ابى وجدى كانا يأخذان الناس بالسيف ، وأنا لا آخذهم الا بالاحسان » ثم أخذ يعرض بالخليفة فى مصر ، ويعلن أنه لايقدر على عزله بكتاب فقال : « لست ممن يولى بكتاب ، ويعزل بكتــاب »

ويحتمل أن يكون ذلك قــد بلغ الى العزيز خليفــة مصر ، فأرسل داعيته ابا الفهم الى كتامة ليثيرها على المنصور بافريقية . ولكن المنصور فطن للدسيسة وأسرها فى نفسه ، وهزم الثائرين ، ثم أرسل الى العزيزهدية ثمينة ، فبادله المنصور الهدية ، وارسل اليه فيلة وزرافات

وكثيرا ما كان المنصور يستميل الثائرين عليه ، ويرجعهم الى طاعته بالاغضاء والتسامح ، كما فعل بعمه أبى البهار ، اذ واساه بكل ما احتاج اليه من مال حينما عاد نادما عن انضمامه الى زيرى بن عطيــة صاحب فاس . وكما فعل بسعيد بن خزرون الزناتى ، اذ زوج ابنه باحدى بنات سعيد بعد أن استوثق من تراجعه .

ولما انكشف له تذمر أهل البادية مما أثقل كواهلهم من ديون الجباية أسقط عليهم تلك الديون ـ على وفرتها ـ فترك هذا الرفق أطيب الاثر فى القلوب . وكانت وفاة المنصور سنة 386 .

فخلفه ابنه الاكبر « **باديس** » فتقلد الولاية فى موكب حافل أقيم له بالمهدية . وكان يومئذ صغير السن ، فاستضعفه امراء زناتة وثاروا عليه ، فبعث اليهم عمه حمادا فى جيوش عظيمة وجعل له ملك مايفتحه . ولما أسعفه الحظ بالانتصار ابتنى قلعة حصينة نسبت اليه ، واتخذها مقرا لملكه الذى امتد فى عقبه من بعده . وبذلك انقسمت الدولة الصنهاجية الى نصفين دولة فى الشرق من افريقية ، وعاصمتها القيروان . ودولة فى الغرب من افريقية ، وقاعدتها قلعة بنى حماد . غير أن هذا الانقسام لم يؤثر كثيرا فى كيان الدولة الصنهاجية وفى قوتها ، كما هو الشأن فى الانقسامات التى قد تودى بحياة دولة ، وتقوض أركانها .

وقد كانت أيام باديس في الحكم مليئة بالحروب والثورات • فمن ذلك أنه في سنة 387 زار القيروان • وكان كثير التردد عليها ، فجاءه الخبر أن زيري بن عطية الزناتي خرج بالمغرب قاصدا بلد آشير ، فجهز لمقاتلته جيشا عظيما ، فالتقى بجموعه قرب تهيرت ، وكانت بينهما حروب شديدة ، انهزم فيها جيش باديس وتشرد ، فاستحوذ زيري على كل ما تركه من سلاح وأثاث ومال •

ولما بلغ باديس نبأ الهزيمة خرج بنفسه من رقادة في جيش ضخم ، وجد في سيره الى آشير التي ضرب زيري حولها الحصار ، وكان النصر في هذه الوقعة حليف باديس ، اذ أرغم جيوش زيري على التقهقر والرجوع الى المغرب • وفي تلك الفترة نشب خلاف شديد بين باديس وأعمامه وكانت بينه وبينهم حروب انتهت بمقتل سبعة آلاف من الزناتيين الذين حاربوا مع أعمامه • ولم يزل باديس يقاوم اعداءه حتى وافاه الاجل المحتوم بالمحمدية •

فتولى بعده ابن **المعز** سنة 406 ولم يتجاوز التاسعة من عمره • فطمع حماد عم أبيه في الملك ، وحاول اغتصابه من الملك الصغير ، والاستيلاء على النصف الثاني من افريقية ، ولكنه باء بالخيبة والهزيمة ، فتراجع الى قلعته •

ولما بلغ المعز سن الرشد ، أظهر قدرة فائقة على تسيير شؤون الدولة ، وضبط الامور بحزم وسداد • فبعث اليه الخليفة الفاطمي سيفا مكللا بالدر وخلع عليه لقب « شرف الدولة »

وكان المعز شاعرا ذكيا ، عارفا بالألحان والتوقيعات ، سخي الكف ، حليم الصدر شجاع القلب •

روى ابن الاثير : انه لما عاد حماد الى محاصرة بعض النواحي التابعة للمعز ، توجه له بعساكره ، ففر حماد ، وسأل العفو فعفا عنه واكرمه واجاب رغبته ، فزوج اخته من ابنه عبد الله بن حماد • وقد مهدت له هذه الخلال الحميدة ، من كظم الغيظ ، والصفح عن

المسيىء ، سبيل الامن ، واصلاح ذات البين بين انصاره وخصومهم ، فصالح اعمامه ، واستقدم ابناء زيرى من جزيرة الاندلس ، فاكرمهم ، ومنحهم عطاء جزيلا ٠

ولحرصه الشديد على مصانعة الناس،وازالة الشقاق ، وتأليف القلوب ، اجتمع الناس حوله ، والتأم شملهم ، واطمأنوا اليـه ٠

ولكن الخليفة الفاطمي بمصر لم تحل هذه السياسة من نفسه محل الارتياح والرضى ، ولم يطمئن الى ذلك الهدوء السائد الذى ينسى فيه ذكره ، ويتضاءل نفوذه ، ويستغنى عن اتباعه الذين بثهم فى البلاد ٠ فكان يعهد سريا لهذه الطائفة ان تندس ، وان تقوم بأدوار مختلفة ، وتثير الخصومات والاضطرابات ، جريا على النظرية البائدة « فـرق تسد » ٠

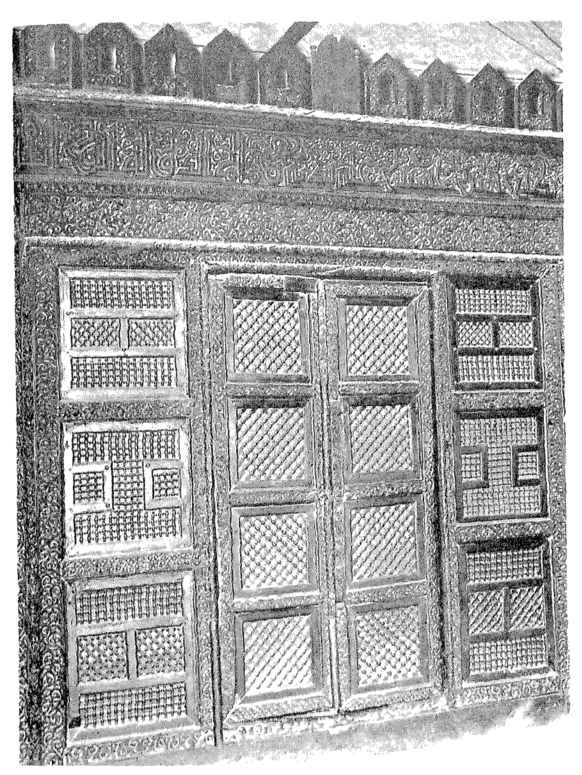
وفعلا فقد عادت الظغائن تتسرب فى القلوب ، وتذكيها المنـاورات والدسائس ، واذا بفتنة الشيعة تظهر من جديد ، فتنفجر الاحقـاد ، وتنشب المعارك العنيفة الدامية بين اهل السنة والشيعة،ويقتل الالوف من الجانبين ، ويرى المعز أن من الخير قطع تلك الصلة التقليدية الواهية التى تربط بين الفاطميين المقيمين فى مصر وبين المغرب ، فيحـرق أعلامهم ، ويأمر بلعن بني عبيد فى الخطب ، والدعاء للخليفة العباسى ، ومن هنا تتطور الاحداث ، وتتخذ اشكالا خطيرة فلم يجـد الخليفـة الفاطمى المستنصر سبيلا للانتقام الا بتنفيذ الخطة التى دبرها وزيره الحسن اليازورى ، فسرح اعراب بنى هلال وبنى سليم ورياح وزغبـة للهجوم على افريقية ٠ فتسربوا اليها كالجـراد ودخلـوا القيـروان ، فقتلوا وخربوا ونهبوا ، ولم تقدر الجيوش الصنهاجية على صد غاراتهم الفظيعة المتفجرة عن نفوس محرومة مكبوتة تغلى فيها الثورات ٠ وعندئذ أشار المعز على اهل القيروان بالانتقال الى المهدية ، ثم انتقل هو اليها سنة 449 ونـزل على ابنـه تميم ، وكان قدولاه المهدية سنـة 445 ٠

وبقى المعز بها الى أن توفى سنة 453 فتسلم زمام الحكم بعده ابنه

تميم ، فابنه يحيى ، فابنه على ، واخيرا ابنه الحسن آخر ملوك صنهاجة

وقد كان زحف الاعراب على افريقية والقيروان نذيرا باضمحلال الدولة الصنهاجية ، ومؤذنا بنهاية العصر الذهبى لحضارة القيروان ، اذ ان القطر بعد المعز أخذت تتنازعه طوائف مختلفة ، ويتقاسمه زعماء الاعراب ، وقد اعتصم كل زعيم منهم بقلعة ، ولم يبق لتميم الصنهاجى من الملك غير جزء يمتد من سوسة الى قابس ·

وفى تلك الفترة التى تفاقمت فيها الثورات الداخلية ، استبـــولى النورمان على صقلية ، وأدخلوا المسلمين فيها تحت سيطرة حكمهم ·وفى نهاية الامر استولى صاحب صقلية « رجار » على طرابلس الغرب،وعلى المهدية ، وعلى معظم الثغور الساحلية ، حتى اسرع لانقاذها عبد المؤمن بن على الزناتى مؤسس دولة الموحدين بالمغرب وذلك سنة 555



مصـــل الملـــوك

سياج خشبي منقوش للمقصورة المعروفة بمصل الملوك
ومما نقش عليـــه
« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبيء محمد وآله وسلم تسليمـا . ممـا
أمر بعمله أبو تميم المعز بن باديس بن المنصور الخ .. »

نكبـــة القيروان

ان المذهب السنى الذى رسخت قواعده فى افريقية وخاصة فى القيروان ، بفضل مابثه علماؤها الكثيرون ، ليس باليسير ان يزول ، ليحل محله المذهب الشيعي الذى يعد زندقة وكفرا فى نظر اهـــل القيروان ومعظم اهل افريقية · لذلك فهم يعتبرون انهم مطالبـــون دينيا بمقاومته ، اذ فى ذلك مقاومة للبدع والضلالات · وما الاضطهادات التى لحقتهم من جراء المقاومه فى العهد العبيدى الا تضحية فى سبيل نصرة الدين والذود عن حماه ، حتى لاتتطرق اليه التآويل التى ما أنزل الله بها من سلطان ! فكان الاعتقاد الدينى هو الدافع لهم مع التجرد عن كل نزعة شخصية او سياسية ·

ولما احس الامير الصنهاجي بلكين ان معارضة السنيين فـى تأييده الظاهرى للشيعة بدأت تأخذ عليه السبيل ، تظاهر بالميل الى السنة · والحقيقة كما قال حسين مؤنس « ان الاخبار تدل على أنه لـــم يكن سينيا مخلصا ولاشيعيا صادقا ، وانما كان رجل سياسة يبحث عن السبيل الذى ييسر له حكم رعاياه » ، ثم لما تجرأ السنيون ومـدوا أيديهم لتقتيل الشيعة ، خشى على مركزه من صولة الخليفة الفاطمى فضرب على أيدى السنين بقوة · وكبح جماح فتنة اخذ فيها البريىء بذنب المجرم ·

فقد حكى :

أن العامة جاءت متعلقة برجل اتهموه برأيهم ، فمروا به على شيــخ من العامة ، فسألهم عن تعلقهم به فقالوا : نسير به الى الشيخ على بن خلـدون ، فننظر ما يأمرنا به ، فقال لهم الشيخ العــامى : لا ، إقتلوه الآن ، فان كان شيعيا أصبتم ، وان كان سنيا عجلتم بروحه الى الجنة »

وفى عهد المنصور الصنهاجى هاجم السنيون دار الامارة وهدموها ، وحملوا على الشيعة فى مساجدهم · وقد ايقن المنصور انه لا يستطيع

يفرض طاعته على أهل افريقية الا اذا حول اتجاهه نحو السنة • فأخذ يميل اليها ، ولكن في حذر واحتراز •

ولما تولى المعز بن باديس ، ورأى شدة تمسك الشعب بالسنة ، أعلن القطيعة للخليفة الفاطمي ، وأطلق العنان للسنيين يفعلون بالشيعة ما يريدون • فانطلق العامة في غمرة جنونية يحرقون ، ويخربون ويقتلون • قيل انهم قتلوا بالقيروان ثلاثة آلاف شيعي • فكانت المأساة ، وكانت النكبة ••!

اقتحم أعراب مصر افريقية ، فكانوا كلما مروا بقرية خربوها وتنادوا « هذه القيروان » • ودخلوا القيروان في رمضان سنة 449 فلم يقو المعز ولا جيوشه على صدهم ، فأتوا عليها تخريبا وتدميرا ، وقتلوا أهلها وشردوا الكثيرين منهم ، وتعطلت مجامع العلم والادب وخبت انوارها ، وتشتت معظم أهلها ، فساءت صناعتها ، وكسدت تجارتها ، وتدهور اقتصادها وقد فرض الغاصبون مكوسا على كل شيء ، فلم تنهض من كبوتها كما نهضت تونس •

وقد أثارت هذه النكبة الفادحة قرائح شعراء القيروان ، فرثوها أحر رثاء ، ووصفوا ما الم بها في مرارة وأسى • كمرثية ابن رشيق اذ يقول فيها :

وَالمَسْجِدُ المَعْمُورُ جَامِعُ عُقْبَةٍ
خَرِبُ المَعَاطِنِ مُظْلِمُ الارْكَانِ
أعْظِمْ بِتِلْكَ مُصِيبَةً مَا تَنْجَلِي
حَسَرَاتُهَا أوْ يَنْقَضِي المَلَوَانِ
أتُرَى اللَّيَالِي بَعْدَمَا صَنَعَتْ بِنَا
تَقْضِي لَنَا بِتَوَاصُلٍ وَتَدَانِ ؟

وتُعِيدُ أرْضَ القَيْرَوَانِ كَعَهْدِهَا
فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الأزْمَانِ !

ومن مرثية ابن شرف

فَيَا رَوْحَتِي بِالقَيْرَوَانِ وَبُكْرَتِي
أرَاجِعَةٌ رَوْحَاتُنَا وَالبَوَاكِرُ ؟
كَأنْ لَمْ تَكُنْ أيَّامُنَا فِيكَ طَلْقَةً
وَأوْجُهُ أيَّامِ السُّرُورِ سَوَافِرُ !

ومن رثاء أبي الحسن الحصري :

لاَ يَشْمُتَنَّ بِهَا الأعْدَاءُ إنْ رُزِئَتْ
إنَّ الكُسُوفَ لَهُ فِي الشَّمْسِ أوْقَاتُ
وَلَمْ يَزَلْ قَابِضُ الدُّنْيَا وَبَاسِطُهَا
فِيمَا يَشَاءُ لَهُ مَحْوٌ وَإثْبَاتُ
هَلْ مَطْمَعٍ أنْ تُرَدَّ القَيْرَوَانُ لَنَا
وَصَبْرَةٌ وَالمُعَلَّى فَالحَنِيَّاتُ
مَا إنْ سَجَا اللَّيْلُ إلاَّ زَادَنِي شَجَنا
فَأتْبَعَتْ زَفَرَاتِي فِيهِ أنَّاتُ

وهكذا خربت القيروان بعد هذه النكبة الفادحة ، فانطمس الكثير من معالمها وتلاشى الجليل من مآثر حضارتها ، وتشتتت معظم أهلها ، فخبا نور العلم والأدب فى ربوعها ، ودخلت فى غياهب الركود والنسيان قرونا طويلة حتى ان العبدرى الرحالة الشهير دخلها اواسط القرن السابع الهجرى فقال : « لما دخلت القيروان بذلت وسعى فى البحث عمن فيها من اهل العلم ، فلم أجد فيها من يعتبر وجوده ، سوى هذا الفقيه المحدث الراوية المتفنن المعروف بالدباغ »

ـ صحن من العصر الصنهاجي عثر عليه فى ناحية الشكنة بالقيروان

ـ قطعة من الفخار المطلى كسى به جدار فى احد القصور العبيدية بصبرة



السياسة الصنهاجية

اذا نظرنا فى العلاقة التى كانت تربط بين الامراء الصنهاجيين وبين الخلفاء الفاطميين بمصر ، وجدناها علاقة شكلية ، لان الفاطميين وان كانت تصدر عنهم مراسيم التسمية والتشريف للامراء الصنهاجيين، لكنهم لم يتدخلوا فى تسيير الاعمال ، ولا فى تعيين العمال ، اذ لم تكن لهم غاية من الابقاء على هذه السلطة التقليدية سوى التظاهر بسعة السلطان والعظمة ، وامتداد النفوذ ، ولو كان هذا النفوذ ادبيا . ويذكرنا ذلك بما آلت اليه السلطنة العثمانية اذ لم يبق من مظاهر عظمتها سوى الدعاء على المنابر بالنصر والتمكين « لسلطان البرين وخاقان البحرين » .

ثم ان الهدايا النفيسة التى كانوا يتبادلونها بين حين وآخر ، لاتدل على استحكام الصلة والمودة بين الجانبين ، ولكنها دخلت فى حكم العادات والتقاليد ، ففقدت ما ترمز اليه من المعانى السامية ، بل ربما تجلى فيها لون من النفاق والخداع ، لانها كثيرا ما تقدم فى ظروف وملابسات لم تخل من دس وكيد ...!

فالأمير الصنهاجى المعز على استخفافه بالخليفة المنتصر الفاطمى كان يهاديه .

روى ابن ابى الضياف أن المعز بن باديس لما قطع الدعوة للفاطميين وناصر أهل السنة كان متهاونا بالخليفة الفاطمى ، ولكنه كان يخشى من دهاء وزيره ابى الحسن ، فصار يكاتبه مكاتبة محب ، رجاء أن يبلغ ذلك الى الخليفة فيتهمه ، ويتنكر له ، والوزير فطن لقصده ، فكان يطلع الخليفة على مكاتبة المعز ، الى ان كتب له بخطه فى رقعة :

وفيك صاحبت قوما لاخلاق لهم
لولاك ما كنت أدرى انهم خلقوا

فقال الوزير لاصحابه :

ألا تعجبون من صبي بربرى مغربي ، يريد ان يخدع شيخا عربيا عراقيا ؟ والله لأرمينه بجيش لا اتحمل فيه مشقة ... ! وأشار على الخليفة بارسال الاعراب الى افريقية ٠

لقد انتبه الصنهاجيون الى حقيقة ٠٠ هى ان المذهب الشيعى هو العنصر الاساسى فى اثارة الشقاق بين ابناء المغرب ، وأن الثورات التى نشبت بين الاخوة وبين بنى الاعمام ، انما نجمت عن سياسة التفرقة التى كان يبثها دعاة الشيعة فى صفوفهم ٠

فسعى المعز بن باديس جهده الى الائتلاف والوفاق ، وتحويل الاتجاه فى المعتقد الى ما تؤمن به اغلبية الامة ٠ فاذا بالشعب يعرب عن مشاعره الصادقة ، اذ يستقبل ذات يوم ركب المعز بالقيروان استقبالا عظيما وهو يهتف بحياته ، ويدعو له ٠

اما السياسة الداخلية التى انتهجها الامراء الصنهاجيون فقد تاثرت بسياسة العبيديين ابان حكمهم بافريقية من الافراط فى الشدة حتى القسوة والجبروت احيانا ، ومن المبالغة فى التسامح حتى الضعف والتنازل احيانا اخرى ٠ وكانوا مثل العبيديين يسرفون فى حياة البذخ والترف ويحيطون ملكهم بهالة من الابهة والعظمة ، ويوزعون الخلع والجوائز فى المناسبات ، ويمدون الاسمطة ويقيمون المواكب الحافلة فى الاعياد ٠

فكان لهم ولعمالهم من ثروة البلاد اوفر نصيب ، وللناس ما فاض عن القصور ٠٠٠

ذكر ابن ابى دينار فى كتاب المؤنس انه لما توفيت جدة المعز بن باديس سنة 411 صنع لها تابوتا من العود الهندى مرصعا بالجوهر ٠ وسمره بصفائح الذهب وقلد التابوت واحدا وعشرين عقدا من نفيس الجوهر ، وادرج جدته فى مائة وعشرين ثوبا ، ثم حملت الى المهدية ودفنت بها ٠ فأمر المعز بنحر خمسين ناقة ، ومائة ثور ، وألف شاة .

وزعت على الفقراء ، عدا ما تصدق به من آلاف الدنانير •

وفي سنة 413 أقام لزفافه وليمة لم يسبق لها مثيل ، وشيد قصرا فخما سماه « الخورنق » تشبيها بخورنق النعمان بالعراق ، ونصب القباب خارج المدينة • وقد قوم حذاق التجار ما حمل للعروسة مهرا فكان ما يربو على ألف ألف دينار •

وكان ليوسف بلكين اربعمائة جارية في قصوره • قيل ان البشائر وردت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدا •

وذكر ابن خلكان : ان يحيى بن تميم بن المعز ، كان حين يقوم الى مجلس الطعام ، يشير الى جارية من حظاياه ليتكيء عليها •

وقد ساعدهم على حياة الرفاهية والترف ازدهار التجارة ، ونمو الصناعة ، ووفرة انتاج الفلاحة • وما يجبى اليهم من اهل البادية .

ولكن ابن الاثير يحدثنا عما كان ينتاب البلاد احيانا من غلاء شديد ، فتتعطل المخابز والحمامات ، ويهلك الناس ، وتنفد ثروة الاغنياء ، وينتشر الوباء ، حتى كان يموت في اليوم الواحد ما بين خمسمائة الى سبعمائة • ويذكر الدباغ : أن كثيرا من الناس انتقلوا الى جزيرة صقلية لرخاء اسعارها ، وأمن سبيلها ، وعدل سلطانها • وفي حوادث سنة 413 – وهي السنة التي اقام فيها المعز وليمة زفافه الفاخرة وبقيت مدة من أحاديث النوادي والمجتمعات – حدثت مجاعة شديدة ، فارتفعت أسعار المعاش ، وتعذرت الاقوات ، واشتد الكرب •

ولا يستغرب أن تنتشر المجاعة في بلد ازدهرت فيه التجارة والزراعة والصناعة اذا علم ما كان يبذل من اموال في الثورات والحروب التي لم تخمد نارها في ذلك العصر ، ثم ما كان ينفق الامراء الصنهاجيون على قصورهم الزاخرة بالعبيد والجواري ، والقيان ، وليس لهم فيما ينفقون من رقيب او محاسب ، اذ كانوا يتصرفون في ثروة البلاد تصرف المالك في ملكه ، ولم يكن لهم مخطط أو نظام اقتصادي تسير بموجبه الحياة في البلاد •

ونتيجة لذلك ، فسد المجتمع ، وتفشى فيه الملق ، والنفاق والانحلال الخلقى ، فضعف الشعور بالكرامة ، وتضاءلت الثقة بالنفس ·

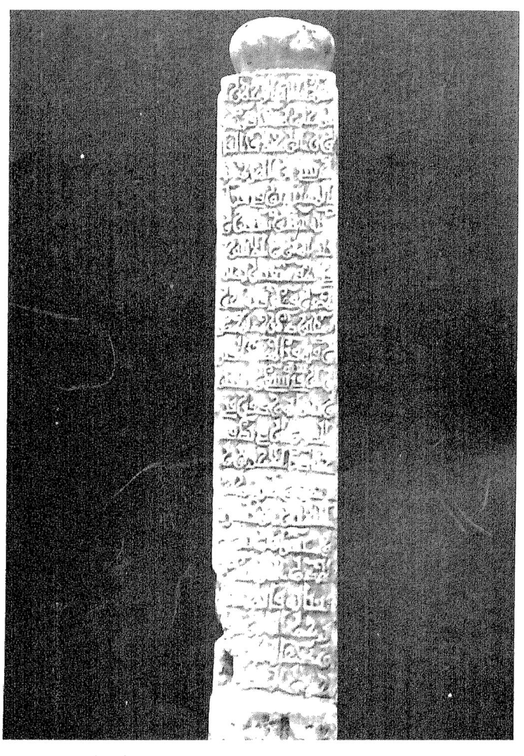
فالرتب والمناصب كان لايتوصل اليها بالكفاءة والجد والعمل لانها جوفاء · لاتؤدى فيها مهمة ، ولا ينجز بها عمل ، وانما يتوصل اليها بالقرابة ، أو الوساطة ، أو الجاه · ومن نال رتبة لايجرؤ أن يكون كريم النفس ، معتدا بشخصه أمام رئيسه ، ولكن يذله التضرع ، ويخذله الخنوع · وهو فى نفس الوقت يشمخ ويتعالى على غير ذوى السلطان ، فيعد سواهم من الشعب سوقة ٠٠!

ان من يقرأ كتاب العمدة لابن رشيق يشعر فى وضوح بوجود الطبقات فى البيئة الاجتماعية لذلك العصر · اذ كثيرا ما يتردد فى كتاباته عفويا ذكر الملوك والخاصة ، وذكر العامة والسوقة ، مما يدل على ان مجتمعه قد أصيب بداء الطبقية ، ومرض التضخم والانانية ٠٠!

فالعامة ـ وهى الطبقة السفلى ـ لبعدها عن ذوى السلطان ، تسعى جهدها للالتحاق بمصاف الخاصة · والخاصة ـ وهى الطبقة العليا لقربها من ذوى السلطان ـ تعمل فى ذعر وحذر من أجل المحافظة على مركزها ، وتجنب كل ما من شأنه أن ينزل بها فى مهاوى السوقة ·

فهو يقول مثلا : « واذا كان الممدوح ملكا ولم يبال الشاعر كيف قال فيه ، وكيف أطنب فى مدحه فذلك محمود ، وان كان سوقة فاياك والتجاوز به خطته » فهو يرى أن من الخطا مخاطبة السوقة بما يخاطب به الملوك ·

والطبقات التى تباعد بينها القيم وحظوظ الحياة واختلاف المستويات تباعدا فظيعا ، انما يغذيها التفاوت فى الحقوق والواجبات ، وجور التوزيع فى الثروات ، وانعدام التوازن الاقتصادى وتكافؤ الفرص ·



شاهد قبر نقل جثمان صاحبه من مصر الى القيروان ونقش عليه :
بسم اللـه الرحمن الرحيم
هذا قبر عبدون بن جلاد النأوسي من اهل مدينة المسيلة . توفى فى سنة ثلاثة وسبعين وثلاثمائة يوم الاثنين فى نصف شعبان بمدينة مصر ، وقد رفعه اخوه عبود من مدينة مصر ودفنه فى مدينة القيروان فى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة

الآثار الصنهاجية

لم يشيد الصنهاجيون من المعالم الا قليلا بالنسبة لما شيده الاغالبة • وذلك لاستغنائهم بما انشأته الدولة الاغلبية واتمته الدولة العبيدية من قلاع وحصون واسواق وحمامات ومساجد ، ولانصرافهم فى أكثر الاوقات الى قمع الثورات ، ومحاربة الخارجين عنهم ، ثم لعدم استقرارهم فى عاصمة واحدة • •

وقد اقتصروا في الغالب على توسعة البناءات الموجودة ، او ترميمها او تحسينها بالزخارف •

فاذا استثنينا ما بناه المعز بصبرة من قصور واسواق اندثرت كلها بعد الزحف الهلالى على القيروان ، او القصر الذى بناه بمدينة المنستير لعمته أم ملال وقد اندرس ايضا ، أو مسجدها المعروف « بمسجد السيدة » ولم يزل قائما الى اليوم •

اذا استثنينا كل ذلك لم نجد من آثارهم بالقطر التونسى سوى زيادات او تحسينات ببعض الجوامع ، كالزيادة التى احدثها المعز فى بيت الصلاة لجامع سوسة من الناحية القبلية ، وقبة محرابه القديم ، والمئذنة المقامة على قبة احد ابراج سور الجامع •

وكذلك قبة البهو بجامع الزيتونة • وقد أمر ببنائها المنصور الصنهاجى •

ومن بدائع الفن الزخرفى الصنهاجي : بعض السقوف الخشبية المزخرفة لجامع عقبة • وقد جددها المعز ، وكذلك مقصورته التى يحيط بها سياج خشبى منقوش ، وداخلها باب منقوش يفضى الى مكتبة الجامع العتيقة • وقد ذكر الاستاذ سليمان مصطفى زبيس : ان هذه الاشغال الخشبية والصنائع الزخرفية ليس لها مثيل فى العالم الاسلامى •

الحـركـة العلميـــة

لقـد كانت الحركة العلمية فى العصر الصنهاجـى امتدادا لمـا سبقها من حركات منذ اوائل الفتح الاسلامى لافريقية • لكن الحياة تطورت فى هذا العهد تطورا كبيرا ، فكثرت المغريات ، وتعددت الطبقات ، وتجمعت المتناقضات ، حتى التبست الامور واشتبهـت السبل ، ووهت تلك الرابطة الروحية التى كانت تربط بين العلماء وبين العامـة يوم كانوا يؤازرونهـم فى المحنـة ، ويتفـانون فى طاعتهم ، ويتسابقون فى التقرب اليهم •

فحين ظفر المعز ابن باديس بالفقيه محمد بن عبد الصمد ، ودبـر امر اغتياله ، انقلب عليه المفرطون فى حبه وتقديره ، وافرطوا فـى ذمه خوفا على انفسهم •

والحقيقة ان المجتمع الافريقى اصبح فى هـذه الفتـرة مليئـا بالمتناقضات • فنجد فيه الثرى المترف ، والبائس المحروم ، وفيـه المساجد ومجالس العلم ، وفيـه الخمارات ومجـالس اللهو ، وفيـه الزاهد المتبتل ، والماجن المستهتر •

ونجد من رجـال الدين والعلماء من يتقرب الـى ذوى السلطـان ويقبل عليهم ، ومن ينقم عليهم وينفر منهم ، ومن له شخصيتـان ، شخصية يتظاهر بها للعامة وشخصية يحتفظ بها لخلوتـه •

ذكـر ابن رشيق : انـه كـان يدخل الجامع فيجد الواعظ عتيق محمد ابو بكر الوراق فى حلقة يقـرأ الرقاق والمـواعظ ، ويذكـر اخبار السلف الصالح ، وقد بدا خشوعـه وترقرقت دموعه ، حتى اذا جاءه عشية ذلك اليوم الى بيته ، وجده فى مجلس لهـو ، فقال له : ما أبعد ما بين حاليك فى مجلسيك ! فأجابه الوراق : ذلك بيت الله ، وهذا بيتى اصنع فى كل واحد منهما ما يليق به وبصاحبه •
وذكر الصفدى : ان القاضى حسين بن مهنـأ الفـاسى رؤى فى

سوق ابن هشام فى فرو قديم وقلنسوة مثله وهو يشترى لحمـا . وكأن الذى رآه اشفق عليه بعد ان عرفه ، فذهب وجاءه بثياب ونفقة ليغير بها حاله . فوجده فى بيته وعليه ثياب نفيسه ، وقص عليه القصة . فقال القاضى : قابلت العامة العمياء بما يشبهها ..!

ان هذا اللون الذى يبدو فى سلوك بعض الخاصة يكشف عن زيف المظهر الذى يحاولون ان يخدعوا به غيرهم ، ولكن العامة كانوا ينظرون اليهم نظرة غير بريئة من الشكوك والريب .

وفى نفس الوقت كان يوجد الى جانب أولئك ، علماء مخلصـون لمبادئهم ، متمسكون بما انتهجوه فى حياتهم سرا وعلانية ، أمثـال أبى الحسن القابسى ، وأبى عمران الفاسى ، وأبى القاسم اللبيدى وغيرهم ممن وثق الناس بعلمهم وعملهم ، وازدحموا على مجالسهم فكانوا بذلك يوجهون قسما عظيمـا من الرأى العـام فى المسائـل الدينية .

وكان الأمراء الصنهاجيـون يذعنون للـرأى العام ، وكثيرا مـا يسايرون أغلبية الامة وعلماءها وان لم يكونوا مقتنعين بسداد ذلك الاتجاه .

ومن ذلك موقف المعز من أبى اسحاق ابراهيم المعافرى أحد أعلام الفقهاء السنيين المعتدلين فى الرأى .

ذكر الدباغ فى معالم الايمان : ان اسحاق استفتى فى مسـألة طلاق ومراجعة ، وكان السائل من فرقة الشيعة فأجاب : ان هـذه الفرقة على قسمين : أحدهما كافر مباح الدم ، والآخر وهم القائلون بتفضيل على على سائر الصحابة ، لا يلزم قتلهم ، ولا يبطل زواجهم . فانكر عليه ذلك فقهاء القيروان ، واحتجوا بأن جماعة من أهل العلم والزهد بالقيروان كانوا أشد الناس مباينة بالعداوة والتكفير لبنى عبيد وأتباعهم . منهم أبو اسحاق السباى ، ومروان العابد ، وربيع القطان ، وأضرابهم .

وأرسلوا اليه أن يعيد النظر ، ويرجع عن هذا القول ، فأبى ، فرفعوا به قضية الى المعز ، فعقد له مناظرة بمشهده حضرها كثير من الفقهاء فناقشوه ، وبينوا له أن الداخل في دعوة الشيعة وان لم يقل بقولهم كافر لتوليه الكفر · فتظاهر بالرجوع الى رأى الجماعة · ثم لما خرج تمادى فى رأيه فأفتى الفقهاء بتضليله ، وأنشد الشعراء قصائد فى هجائه والتبرىء منه · ثم أمر المعز باحضاره بالمقصورة اثر صلاة الجمعة ، وأحضر معه أبا الحسن القابسى ، وأبا القاسم اللبيدى وغيرهما · فحكم اللبيدى : بأن يقر بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس ، وأن يقول : كنت ضالا فيما رأيته ورجعت عن ذلك الى مذهب الجماعة · فاستعظم الامر على المنبر · وقال : ها أنا أقول هذا بينكم · فقنعوا منه بذلك·

قال عياض : ولا امتراء عند كل منصف أن الحق فيما قاله أبو اسحاق لقد كان المعز ميالا الى أبى اسحق والى رأيه ولكنه اضطر أن يذعن لرأى الاغلبية وان خالف ما فى نفسه · ويؤيد ذلك أنه حين توفى أبو اسحق حضر المعز جنازته في حفل عظيم ورثاه ابن رشيق بقصيدة مطلعها :

ليس الذى صحب الزمان بباقى
والخلق حبهم الى الخلاق

ومن أشهر فقهاء القيروان فى هذا العصر :

أبو الحسن القابسى

لم يكن أبو الحسن قابسيا ، وانما كان له عم يشد عمامته كما يشدها أهل قابس ، فسمى بذلك ·

تلقى أبو الحسن العلم بافريقية ثم حج وسمع بمصر ومكة عن الكثير من العلماء · وعاد الى القيروان فأخذ عنه أبو عمران الفاسى،

وأبو قاسم اللبيدى وأبو بكر المالكى وغيرهم • وكان واسع الرواية عالما بالحديث ورجاله ، فقيها أصوليا •

ومن تآليفه : الممهد فى الفقه ، والمنقذ من شبه التأويل ، وكتاب المعلمين والمتعلمين ، وكتاب رتب العلم وأحوال أهله • وكتاب حسن الظن بالله تعالى •

مات بالقيروان سنة 403 ودفن بمقبرة الحطبية • وقبره معروف • وكان أعمى • ومع ذلك فهو من أصح الناس حكما ، وأجودهم ضبطا ، ومما قال أبو بكر المالكى أحد تلاميذه فى ترجمته :

« ركب أبو الحسن طريقة من الزهد والورع والخشية وصدق المقال فى الوعظ ، لم يسلكها فى وقته غيره ، فطبق ذكره الآفاق ، وكثر ازدحام الناس على مجلسه لاستماع وعظه ومالت اليه القلوب والأسماع ، وكثرت حوله الاتباع ، حتى حذره السلطان » •

قيل انه لما توفى رثاه الشعراء بنحو مائة مرثية ، وأقاموا على قبره سنة ينشرون المراثى •

كما اشتهر من فقهاء هذا العصر :

أبو عمران الفاسى : أخذ عن أبى الحسن القابسى وارتحل الى قرطبة والمشرق ، ثم عاد الى القيروان ، فأقرأ القرآن وعلم الفقه وأسمع الحديث ، وكان يجلس للمذاكرة والسماع فى داره ، فما تكلم بشىء الا كتب • وقد توفى سنة 430 وقبره بالقيروان معروف

وابو القاسم عبد الرحمن اللبيدى : أخذ عن أبى الحسن ثم أرسله الى المهدية ليفقه أهلها •

ومن تآليفه : الملخص • وكان ينشد الشعر ويحسن القول فيه• وتوفى بالقيروان سنة 440 •

وابو القاسم عبد الحق السيورى : أحد تلاميذ أبى عمران الفاسى ، كان يحفظ دواوين المذهب ، وله عناية بالحديث والقراءات

وكان لا يأكل الا من كد يمينه • توفى بالقيروان سنة 462 •

وهكذا نستخلص ان الحركة الفقهية لم يفتر نشاطها فى العصر الصنهاجى ، رغم الفتن ، والملاهى ، والتطور ، بل تزايد عدد النابهين فى الفقه من هذا القطر • وناهيك بمائة وعشرين من أعلام الفقه ترجم لهم الدباغ فى معالم الايمان فيما بين سنة 333 ـ وسنة 495 •

كما نبغ فى اللغة والنحو بالقيروان كثيرون كان بعضهم يقوم بتعليم أبناء الامراء وذوى السلطان •

ومن أشهر هؤلاء الاعلام :

محمد بن جعفر القزاز : كان الغالب عليه اللغة والنحو وهو من بين الشعراء الذين ذكرهم تلميذه ابن رشيق فى شعراء عصره • وأشهر كتاب له : (الجامع) فى اللغة •

وكثيرا ما ينقل ابن رشيق فى كتابه العمدة أقواله ، ومجالس أدبه • وكان يطرح على تلاميذه عويصات المسائل ويكلفهم حلها • كما صنف كتاب (العشرات) فى اللغة يذكر فيه اللفظة ومعانيها المترادفة ، ويزيد فى بعضها على العشرة • وقد توفى القزاز سنة 412 •

وابن الوزان النحوى : كان من حفاظ أهل زمانه • ويذكر الزبيدى أنه حفظ كتاب العين للخليل ، وكتاب سبويه وكتاب اصلاح المنطق لابن السكيت ، وغيرها من كتب اللغة • وقد قال فيه أبو على بن ابى سعيد : « لو ان قائلا قال : انه أعلم من المبرد وثعلب لصدقه من وقف على علمه ونفاذه » • وكان يستخرج من مسائل النحو والعربية أمورا لم يتقدمه فيها أحد • وقد توفى سنة 346 •

ومن العلوم التى ازدهرت فى هذا العصر : الكيمياء ، والرياضيات والطب •

أما الكيمياء فقد برز فيها :

أمية بن أبى الصلت : ولد بالمهدية وبها نشأ فى طلب العلوم فلمع نجمه فى الكيمياء والفلسفة والادب •

ومن تآليفه : رسالة العمل بالاسطرلاب ، والوجيز فى الهيئة وتقويم الذهن • فى المنطق •

ولما أنشأ علي بن يحيى الصنهاجى حفيد المعز مدرسة العلوم الكيميائية سنة 501 أسند رئاستها اليه • وقد ابتنى الأمير الصنهاجى لذلك عمارة سماها «دار العمل» وزودها بآلات تحليل المعادن والاحجار ، وتقطير الاعشاب والنبات ، وأدوات لتبخيرها وتحويلها • وقد دامت هذه المدرسة نحو خمسة وعشرين سنة •

ومن شعر أمية :

وَقَائِلَةٍ مَا بَالُ مِثْلِكَ خَامِلاً
أَأَنْتَ ضَعِيفُ الرَّأيِ أمْ أنْتَ عَاجِزُ
فَقُلْتُ لَهَا ذَنْبِي إلَى القَوْمِ أنَّنِي
لِمَا لَمْ يَحُوزُوهُ مِنَ المَجْدِ حَائِزُ
وَمَا فَاتَنِي شَيْءٌ سِوَى الحَظِّ وَحْدَهُ
وَأمَّا المَعَالِي فَهْيَ عِنْدِي غَرَائِزُ

وأما الرياضيات فقد اشتهر بها :

عبد المنعم الكندى : ولد بالقيروان ، وتفقه فى العلوم الشرعية ، ونبغ فى الرياضيات يقال انه فك اقليدس بذهنه • وقد توفى سنة 435 • ورثاه عبد الله ابن أبى زكرياء التوزرى بقصيد جاء فيه :

وَمَنْ لِلْعِبَارَاتِ الغَوَامِضِ بَعْدَهُ
إذَا شِيبَ مِنْهَا مَا تَجِنُّ الغَيَاهِبُ ؟
إذَا أشْكَلَتْ أشْكَالُ إقْلِيدِسَ انْبَرَى
لَهَا مِنْهُ حَبْرٌ بَارِعُ الفَهْمِ ثَاقِبُ

وأما الطب فقد نبـغ فيـه :

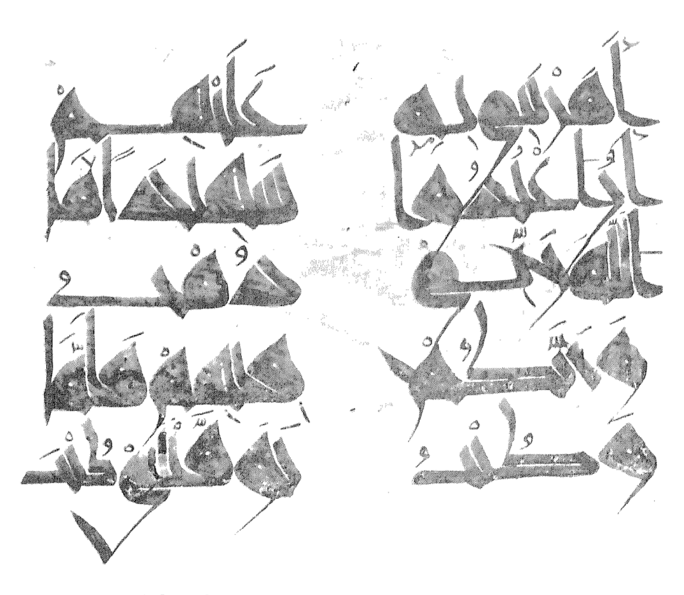
احمد بن الجـزار : ولد بالقيـروان وكان ممـن لقى اسحق بـن سليمان وصحبه وأخذ عنه ، اشتهر بالطب وخدمة العامة به • قيل: كان عنده نحو خمسة وعشرين قنطارا من كتب طبية وغيرها •

ومن تآليفه فى الطب : كتاب فى علاج الامراض ، ويعرف «بزاد المسافر» وكتاب فى الادوية المفردة ويعرف «بالاعتماد» وكتاب فـى الادوية المركبة ويعرف «بالبغية» وكتاب «العدة لطول المدة» وهـو أكبر كتاب وجد له وكتاب فى «الفرق بين العلل التى تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها» وقد ترجم علماء أوروبـا جانبا مـن كتبـه الى اللاتينية • ومن كتبه التى الفها فـى التاريخ «التعريـف بصحيح التاريخ» وكتاب «أخبار الدولة» •

وقد توفى بالقيروان سنة 369 هـ • عن سن تناهز الثمانين •

قال كشاجم يمدحه ويصف كتابه المعروف بزاد المسافر :

أبَـا جَعْفَـرٍ أبْقَيْـتَ حَيّاً وَمَيِّتـاً
مَفَاخِرَ في هَـذَا الزَّمَـانِ عِظَامَا
رَأيْـتُ عَـلَى زَادِ المُسَافِـرِ عِنْدَنَـا
مِنَ النَّاظِرِيـنَ العَارِفِيـنَ زِحَـامَـا
فأيْقَنْتُ أنْ لَوْ كَانَ حَيّاً لِوَقْتِـه
يُوحَنَّا لَمَـا سَمَّـى التَّمَـامَ تَمَـامَا
سَأحْمَدُ أفْعَالاً لأحْمَدَ لَمْ تَـزَلْ
مَوَاقِعُهَـا عِنْـدَ الكِـرَامِ كِـرَامَـا



صفحة من مصحف مخطوط على الرق بالخط الكوفى أوقفته فاطمة حاضنة المـ
جامع القيروان سنة 410 هـ .
وقد جاء فى هذه الصفحـة :
أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم . فلـ

الحركة الادبية

امتاز العصر الصنهاجي برقي الفنون والآداب ، فكان بحق ، العصر الذهبي للقيروان وافريقية ، خصوصا في عهد المعز ابن باديس الذى استحكم فيه العمران ، فأصبح القطر يزهو بالخير الوفير ، والاستقرار الرخي ، والحضارة الناعمة ..

ولم يكن ذلك الرقي وليد عصر واحد ، ولكنه وليد العصور المتتالية ، وثمرة التجارب الطويلة ، وعصارة الحضارات المختلفة، التى التقت بهذا القطر ، أو سرت أصداؤها اليه ، يوم كانت أصداء الثقافة تتجاوب فى القيروان والمهدية وغيرهما من المدن ، آتية أصواتها من الشام والعراق ومصر والسودان والأندلس .

وليس من شك فى ان افريقية كان يتردد فى مجالسها الادبية نثر ابن العميد ، وابن عباد ، وبديع الزمان ، وابى حيان وغيرهم، كما كان يتداول فيها شعر المتنبى والمعرى ، والبحترى ، والشريف الرضى وأمثالهم .

بعث أبو علي بن الربيب الى المغيرة بن حزم ، برسالة يحدثه فيها عن سرعة الاتصال ، وذيوع الأخبار فيقول :

« ليس بيننا وبينكم الا روحة راكب ، أو دلجة قارب ، لو نفث ببلدكم مصدور ، لأسمع ببلدنا من فى القبور ، فضلا عمن فى الدور والقصور » .

ومما ساعد على انتشار الحركة الأدبية وازدهارها ، ان المعز ابن باديس ــ لما أتيح له من الثراء المترف ، والفراغ اللاهى ــ فتح قصره للشعراء ، وحباهم بكرمه ورعايته ، وعقد لهم مجالس المناظرة ، وجعل منهم السنة تلهج بمدحه ، حتى اجتمع ببابه نحو مائة شاعر.

وكما قال أحمد أمين : فان الشعر العربى بطبيعة موضوعاته التى كانت ، من مديح ونحوه ، لم يكن يزدهر الا على باب قصور

الخلفاء والأمراء · فان تذوقـوه وشجعوه نما وازدهـر ، والا ضعف وانحدر ·

وكـان في مقدمة هؤلاء الشعراء ، شاعر القيروان المبدع ابـن رشيق الذى لزم ديوان المعز ، وأخذ الصلة منه · وقد هيأت له مكانته فى الأدب ، ومنزلته فى الشعر ، أن يقربه المعز ، ويجعله من ندمائه ، وينفحه بالعطاء الوفير ، ويطلق لسانه بمدحه كقوله حين ابتنى المعـز بناء فى قصره بصبرة :

وَثَـنٍ المَـلاَحَـةِ غَـيْـرَ أنَّ دِيَانَتِـي
تَـأبَـى عَلَـيَّ عِبَـادَةَ الأَوْثَـانِ
يَا ابْنَ الأعِزَّةِ مِنْ أكَابِرِ حِمْيَرٍ
وَسُلاَلَةِ الأمْلاَكِ مِـنْ قَحْطَـانِ
مِنْ كُلِّ أبْلَجَ آمِـرٍ بِلِسَـانِـهِ
يَضَعُ السُّيُوفَ مَـوَاضِعَ التِّيجَـانِ

الى ان يقـول :

وَحَلَلْتَ مِنْ عَلْيَاء صَبْرَةَ مَوْضِعا
أكْرِمْ بِهِ مِنْ مَوْضِعٍ وَمَكَانِ !
زَادَتْ بِنَاهُ عَلَى الخَوَرْنَقِ بَسْطَـةً
وَحَوَتْ أعَـزَّ حِمًى مِنَ النُّعْمَـانِ
وَغَدَا ابْنُ ذِي يَزَنٍ بِسُفْلٍ دُونَـهُ
هِمَمًا نَزَلْنَ بِهِ عَلَى غِمْـدَانِ

وقـد تهيأ لشاعر آخر أن يكون فى حضرة المعز ، ومن المقربين لديه ، وهو ابن شرف القيروانى ·

وكثيراً ما كان المعز يثير التنافس بينه وبين ابن رشيق ويدفعهما الى القول ، ويلجئهما الى التهاجي ، ليسلو بما تنتجه المباريات والمساجلات بينهما . وما الذى يحول بين الأمير ، وبين تسخير الشعر لفراغه حين يركن الى اللهو ، وهو الذى سخره فى شؤونه السياسية ؟ . فليس من المستغرب اذن أن يطلب المعز فى بعض الأيام الى الشاعرين المتنافسين أن يصنع كلاهما شعرا فى مدح زغب على سيقان بعض النساء ، أو فى وصف أترجة ، أو فى غير ذلك من الاشياء التافهة التى لا يصدر فيها الشعر عن الوجدان، والتى تحول الفنون الى لغو وسخف .

قال ابن شرف : استدعانى المعز بن باديس يوما ، واستدعى الحسن بن رشيق ، وكنا شاعرى حضرته وملازمى ديوانه ، فقال : أحب أن تضعا بين يدى قطعتين فى صفة الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر .

فكان الذى صنعته :

يَا حَبَّذَا المُوزُ وَإِسْعَادُهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْضَغَهُ المَاضِغُ
لاَنَ إِلَى أَنْ لاَ مَجَسَّ لَهُ فَالفَمُ مَلآنُ بِهِ فَارِغُ
سِيَّانِ قُلْنَا : مَأْكَلٌ طَيِّبٌ فِيهِ وَإِلاَّ مَشْرَبٌ سَائِغُ

وكان الذى صنعه ابن رشيق :

مُوزٌ سَرِيعٌ أَكْلُهُ مِنْ قَبْلِ مَضْغِ المَاضِغِ
مَأْكَلَةٌ لآكِلٍ وَمَشْرَبٌ لِسَائِغِ
يُخَالُ وَهْوَ بَالِغٌ لِلْحَلْقِ غَيْرَ بَالِغِ

وقلما يتهيأ الجو لشعراء البلاط كي يستلهموا الحياة ، ويستوحوا الوجدان ! .

حتى اذا ما تحرر الشعر من الأغراض التى تملى عليه فى بلاط الأمراء ، وانطلق تلقائيا يعبر عما يختلج فى الصدور ، ويجيش به الشعور ، تجلى فيه الفن والابداع ·

قال ابن رشيق : سايرت مرة يعلى بن ابراهيم الادريسى فأكثر من الاجتياز بمكان لم أعهده يمر به الا صفحا · ثم وقف فأنشدنى أبياتا له في الحب ·

ثم عزم على : لتنشدن لنفسك ·

فأنشدته فى الوزن والروى :

بِنَفْسِيَ مِنْ سُكَّانِ صَبْرَةَ وَاحِدا
هُوَ النَّاسُ وَالبَاقُونَ بَعْدُ فُضُولُ
عَزِيزٌ لَهُ نِصْفَانِ ذَا فِي إِزَارِهِ
سَمِينٌ وَهَذَا فِي الوِشَاحِ هَزِيلُ
مَدَارُ كُؤُوسِ اللَّحْظِ مِنْهُ مُكَحَّلٌ
وَمَنْبَتُ وَرْدِ الحُسْنِ مِنْهُ أَسِيلُ

فحالت حاله ساعة حتى أدركنى عليه الجزع · ثم أفاق خجلا، فأنشدنى له أبياتا فى الغزل · فعلمت ان له خبرا · ثم كشفت عن القصة بعد ذلك . فاذا دار عشيقته هنالك ، وصحبته الى تلك الناحية ، فأنشدنى لنفسه أيضا :

وَمَا بِي وَإِنْ أَفْنَى عَلَيْكَ تَأَسُّفَا
وَلاَ أَنَّ قَلْبِي فِي هَوَاكَ يَذُوبُ
وَلَكِنَّنِي أَخْشَى بِهَجْرِكَ تَنْقَضِي
حَيَاتِي وَمَالِي فِي رِضَاكَ نَصِيبُ

وَيَبْعُدُ عَنِّي حُسْنُ مَنْظَرِكِ الـذي
بِـهِ تَحْسُـنُ الدُّنْيـا لَنَـا وَتَطِيـبُ
ألاَ فَاحْكُمِي يَا مَلْكُ فِيمَنْ مَلَكْتِه
فَـإنِّـي أَسِيـرٌ فِـي يَدَيْـكِ غَرِيـبُ

ومن الشعراء من انتهج طريقة عمر بن أبى ربيعة فى تضمين الحكايات والاقوال كما فعل الشاعر أبو عبد الله ابن قاضى ميلة حين قال :

وَلَمَّـا الْتَقَيْنَا مُحْرِمِينَ وَسَيْرُنَـا
بِلَبَّيْكَ يُطْوَى وَالرَّكَائِبُ تَعْسِـفُ
نَظَـرْتُ إلَيْهَـا وَالِهـا وَكَأَنَّمَـا
غَـوَارِبُهَـا مِنْهَـا عَـوَاطِسُ رُعَّـفُ
فَقَالَتْ أيَا مِنْكُنَّ مَنْ يَعْرِفُ الفَتَى
فَقَدْ رَابَنِي مِنْ طُولِ مَا يَتَشَوَّفُ ؟
أرَاهُ إذَا سِرْنَـا يَسِيـرُ حِـذَاءَنَـا
وَنُوقِـفُ أخْفَـافَ المَطِيِّ فَيُوقِـفُ
فَقُلْتُ لِتِرْبَيْهَا أبْلِغَاهَا بِأنَّنِي
بِهَـا مُسْتَهَـامٌ . قَالَتَا : نَتَلَطَّـفُ

ومنهم من قال الشعر فى هجاء الشيعة وما حدث فى يوم قتلهم بالقيروان وهو ابن زنجى الكاتب اذ يقـول :

وَكُنَّا نَظُنُّ الكُفْرَ فِي جَاهِلِيَّـةٍ
فَتَعْسًا لِكُفْرٍ جَاهِلِيٍّ مُخَضْـرَمِ

شَتَمْتُمْ عَتِيقاً وَالإِمَامَيْنِ بَعْدَهُ
فَلَمْ تُعْتَقُوا يَوْمَ الحَرِيقِ المُضَرَّمِ
وَسُؤْتُمْ نَبِيَّ اللَّهِ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ
وَأَفْضَلَ بِكْرٍ فِي النِّسَاءِ وَأَيِّمِ
وَكَمْ عَاثِرٍ مِنْكُمْ إِذَا صَافَحَ الثَّرَى
مِنَ الذُّعْرِ قُلْنَا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ
فَلاَ نَفَقٌ فِي الارْضِ أَخْفَى مَكَانَكُمَ
وَلاَ شَاهِقٌ يُرْقَى إِلَيْهِ بِسُلَّمِ
لَقَدْ رَفَضَتْكُمْ كُلُّ أَرْضٍ وَبُقْعَةٍ
وَقَدْ صَرَّخَتْ مِنْكُمْ بِقَاعُ جَهَنَّمِ

وهكذا نلاحظ ان الاغراض التي تناولها الشعر الصنهاجي تنوعت وتعددت . فقال شعراؤهم في الراح ، وفي الغزل ، وفي الملح والفكاهات ، وقالوا في الهجاء ، وبرعوا في الوصف . فوصفوا البساتين والرياحين ، والطيور ، والسفن الحربية ، والليل ، والكواكب ، وغير ذلك مما يدل على ان الشعر قد خطا في هذا العصر خطوات واسعة ، وخرج في كثير من الاحيان عن حدود الجد ، الى المجون والشراب والرقص ، « فنقرأ عن عبد الكريم النهشلي كاتب المعز كيف كان في سكره حين يرى الراقصات والكاس في يده ، فيصفق ، فيسقط الكاس في حجره ، وعليه ثياب نفيسة فيتلفها ، فيقال له : ما هذا ؟ فيجيب ما علمت ان الكاس في يدي ! .

لقد هيأت تلك المجالس لشعراء المجون ـ وهم كثيرون ـ الاجواء الشعرية التي ألهمت قرائحهم، وشحذت عواطفهم . فقد ذكر الدكتور عبد الرحمان باغي في كتابه (حياة القيروان) ان من آثار ابن رشيق في

الادب : كتاب « انموذج الزمان فى شعراء القيروان » حفظ لنا فيه ذكر ما يزيد على مائة شاعـر ، ودرس حياتهم ، وتنـاول اخبارهم وحلل مناهجهم الشعرية ، واورد من شعرهم ما يقـوم دليلا عليه • ولئن لم يعثر علـى ذلك الكتاب فان فضل اللـه العمرى اورد فـى « مسالك الابصار » مختصرا منـه •

ويذكر صاحب البساط ان لابن رشيق كتابا آخر سماه « الروضة الموشية فى شعراء المهديـة »

ويذكر احمد امين فـى « ظهر الاسلام » ان العماد الاصفهانى عقد بابا طويلا فى القسم الثانى من الجـزء الحـادى عشر فى محـاسن جزيرة صقليـة ، ويـروى فيه شعـرا صقليا بعضه عـلى اوزان جديدة كقول ابى الحسن ابن ابى بشرفى راقصـة •

وَغَـزالٍ مُشَنَّـف قَدْ رَثَى لِي بَعْدَ بُعْدِي
لَمَّا رَأَى مَا لَقِيتُ
مِثْلِ رَوْضٍ مُفَـوَّفٍ لاَ أُبَالِي وَهْوَ عِنْدِي
فِي حُبِّهِ إنْ ضَنَيْتُ

على ان هذه النهضة الادبيـة لم تقتصر علـى الشعر وحـده ، بل امتدت الى النثر الفنى والنقد الأدبى وكان امامهـا « عبد الكريـم النهشلى » كاتب المعز •

فمن كتاباته فى النقـد :

« قـد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره • ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخـرج عن حسـن الاستـواء ، وحـد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظا لاتستعمل

كثيرا في غيره ، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام فـــارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم الخ » ٠

ويأتى بعده أبو أسحق الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » ومن نثره فى هذا الباب قوله :

« الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع ، مقبول فــى السمع ، قريب المثال ، بعيد المنال، أنيق الديباجة، رقيق الزجاجة، يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن فى صفحاتـــه ٠ وحمل الصانع شعره على الاكراه فى التعمل بتنقيح المبانى دون اصلاح المعانى ، يعفى آثار الصنعة ، ويطفىء أنوار الصبغة ويخرجــــه الى فساد التعسف ، وقبح التكلف ٠

وأحسن ما أجرى اليه وأعول عليه ، هو التوسط بين الحالين ، والمنزلة بين المنزلتين » ٠

ومــن هذه البيئة الادبية خرج ابن رشيــق وابن شرف وظهــر كتاباهما « العمدة » و « أعلام الكلام » فكانا تتويجا لحــركة النقــد الأدبى التى ظهرت فى ذلك الحين ٠



من مشاهـــد قبـور عثر عليهـــا
بمقبرة قريش . ترجع الى العصر الصنهاجي

ابن رشيق

هو ابو على الحسن بن رشيق • ولد بالمحدية سنة 390 . ثم ارتحل الى القيروان • فدرس الادب والنقد على أبى عبد الله القزاز النحوى القيروانى وغيره ، وجالس أدباء القيروان وشعراءها أمثال على بن أبى الرجال وعبد الكريم النهشلى ، ومحمد بن شرف ، وأحمد بن أبى الليث اللخمى وغيرهم ، ولم تزل مكانته فى الادب والشعر تسمو به ، حتى قربه المعز بن باديس الى حضرته ، وجعله من خاصته وندمائه ، فمدحه فى قصائده • ولم يزل بالقيروان حتى هجم الهلاليون عليها وخربوها • فانتقل الى صقلية ، وأقام بمازر الى أن توفى بها سنة 456 •

وكانت له مع زميله ابن شرف مساجلات وتندر وهجاء • كقوله حين طلب منه ابن شرف النهوض للاندلس :

مِمَّا يُبَغِّضُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ
سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا
كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الاَسَدِ

فأجابه ابن شرف :

إِنْ تَرْمِكَ الغُرْبَةُ فِي مَعْشَرٍ
قَدْ جُبِلَ الطَّبْعُ عَلَى بُغْضِهِمْ
فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ
وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ

وكان ابن رشيق كاتبا شهيرا ، وناقدا بصيرا ، وشاعرا مجيدا •

ولم يمنعه اتجاهه نحو الشعر من أن يغشى مجالس العلماء ، ويأخذ عنهم ، لان الادب الناجح فـي عصره كان يأخـذ بحظه مـن مختلف فروع المعرفة ، حتى ترسخ قدمه فى الفن الذى ينشده ·

كمـا يقـول هـو نفسـه :

« والشاعر مأخوذ بكل علم ، مطلوب بكل مكرمة ، لاتساع الشعر واحتماله لكل ما حمل من نحو ولغة وفقه ، ولانه قيـد الاخبـار، وتجديد للآثار » ·

لذلك كان ابن رشيق متعمقا فى الادب وفنونه ، واسع الاطلاع على أخبار العرب وكلامهم من نثر وشعر · وهذا يدل عليه كتابـه « العمدة » فى صناعة الشعر ونقده وعيوبه · وهـو كما قـال ابن خـلدون :

« هو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقهـا ، ولـم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » ·

وقد امتاز ابن رشيق فى اسلوبه النقدى بتحليل الجانب اللفظى والجانب المعنوى واستيفاء الوجوه المختلفة بعبارات واضحة مستفيضة فيعرض للنتيجة قبل أن يتناول الأجزاء والطرق والمقدمات ويـورد الأبواب المختلفة لغيره كقوله فى باب اللفظ والمعنى :

« اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطـه به كـارتباط الـروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختـل بعض اللفظ ، كان نقصا للشعر وهجنة عليه · كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل ، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذى يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح الخ ... » .

وأما شعره فقد امتاز بجمال الصوغ ، وتوليد المعانى ، وتصيدها مما قاله الشعراء قبله فى ما يشبه ذلك الموضوع · لذلك لا نستجلى

منهجا خاصا به ، أو طابعا يدل عليه شعره .

وقد تناول شعره أغراضا عديدة كالرثاء ، والغزل ، والوصف ، كقوله يعرض لوسائل الارزاق التى لا تقوم على أسس قارة مطردة :

يُعْطَى الفَتَى فَيَنَالُ فِي دَعَةٍ
مَا لَمْ يَنَلْ بِالكَدِّ وَالتَّعَبِ
فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ فَضْلَ رَاحَتِهَا
إذْ لَيْسَتِ الأَشْيَاءُ بِالطَّلَبِ
إنْ كَانَ رِزْقٌ بِلاَ سَبَبِ
فَرَجَاءُ رَبِّكَ أعْظَمُ السَّبَبِ

وكقوله فى الغناء :

وَمُكْتَحَلِ الجُفُونِ سَطَا عَلَيْنَا
بِكَأسٍ وَالصَّبَاحُ لَهُ انْصِدَاعُ
فَقُلْتُ لَهُ : تَغَنَّ فَدَتْكَ رُوحِي
لَنَا صَوْتًا ، فَمَا حَرُمَ السَّمَاعُ
فَحَرَّكَ رَأسَهُ طَرَبا وَغَنَّى
أضَاعُونِي وَأيَّ فَتَى أضَاعُوا

وكقوله فى القناعة :

تُنَازِعُنِي النَّفْسُ أعْلَى الأمُور
وَلَيْسَ مِنَ العَجْزِ لاَ أنْشَطُ
وَلَكِنْ بِمِقْدَارِ قُرْبِ المَكَانِ
تَكُونُ سَلاَمَةُ مَنْ يَسْقُطُ

وكقوله في ركوب البحر :

مَرْتَنِي بِرُكُوبِ البَحْرِ مُجْتَهِدا
وَقَدْ عَصَيْتُكَ فَاخْتَرْ عَنِّي غَيْرَ ذَا الدَّاءِ
مَا أَنْتَ نُوحٌ فَتُنْجِينِي سَفِينَتُهُ
وَلاَ المَسِيحُ أَنَا أَمْشِي عَلَى المَاءِ

وكقوله في البعوض :

يَا رَبِّ لاَ أَقْوَى عَلَى دَفْعِ الاَذَى
وَبِكَ اسْتَعَنْتُ عَلَى الضَّعِيفِ المُوذِي
مَالِي بَعَثْتَ عَلَيَّ أَلْفَ بَعُوضَةٍ
وَبَعَثْتَ وَاحِدَةً عَلَى النَّمْرُوذِ

أما نثر ابن رشيق ، فهو أنيق في ألفاظه ، جميل في ترسله وأسلوبه كقوله وقد كاتب أحد أصدقائه في مدح السفر :

مثل الرجل القاعد ــ أعزك الله ــ كمثل الماء الراكد ــ ان ترك تغير ، وان تحرك تكدر ٠ ومثل المسافر ، كالسحاب الماطر ، هؤلاء يدعونه رحمة ، وهؤلاء يدعونه نقمة ٠ فاذا اتصلت أيامه ، ثقل مقامه ، وكثر لوامه ٠ فاجمع لنفسك فرحة الغيبة ، وفرحة الاوبة ٠

وله من فصل في عمل الشعر وشحذ القريحة له :

ثم ان للناس ضروبا مختلفة يستدعون بها الشعر ، فتشحذ القرائح ، وتنبه الخواطر ، وتلين عريكة الكلام ، ويسهل طريق المعنى ، كل امرىء على تركيب طبعه ، واطراد عاداته ٠ وليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالاسحار عند الهبوب من النوم ، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها في أسباب اللهو أو المعيشة ، واذا هي مستريحة ، جديدة ، كأنما أنشئت نشأة أخرى ، ولان السحر ألطف هواء ، وأرق نسيما وأعدل ميزانا بين الليل والنهار »

ابـن شـرف

هـو أبو عبد الله محمد بن شرف من أحد بيوتات العرب التـي قدمت افريقية مع الجيش العربى الفاتح ·

ولد بالقيروان ، ونشأ فى طلب العلم والادب ، ـ والقيروان فى أوج ازدهارها العلمى والادبى ـ فأخذ عن أبى الحسن القابسى وأبى عمران الفاسى ، وشارك بادبه فى المجالس الادبية ، فكان شاعـرا اديبا مرهف الذوق ، رقيق الاحساس ·

ولـما اشتدت فتنة الاعـراب على القيروان خرج منها ابن شـرف الى المهدية واتصل فيها بالمعز وابنه تميم ، ثم رحل الى صقلية واتصل بأميرها ، وأخيرا ارتحل الى الاندلس وتجـول فى عواصمهـا حتى أدركته الوفاة باشبيلية سنـة 460 ·

ومن أشهر تآليفه فى النقد الادبى : « رسالة أعلام الكلام » ·

وقـد تناول فيها الشعر والشعـراء ، وكيف كانت الاشعار قبل امرىء القيس وأمثاله سواذج فجدد فيهـا ، وأن الطبـع معلـم حاذق ، والذكاء جواد سابق ، ثم يستعرض لكل شاعر أخباره ، وخصائصـه فيقول عن أبى نواس مثـلا :

« فأما أبو نواس فأول الناس فى خرم القياس ، وذلك انه ترك السيرة الاولى ، ونكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجد هزلا ، والصعب سهلا ، فهلهل المشدد ، وبلبل المنضد ، وصادف الافهام قد كلت ، وأسباب العربية قد انحلت ، والفصاحات قد سئمت وملت ، فمال الناس الى ما عرفوه ، وعلقت نفوسهم بما ألفوه ، فتهادوا شعره ، وأعلوا سعره ، وشغفوا بأسخفه ، وكلفوا بأضعفـه · الخ ... »

أمـا شعره ، فيمتاز بصدق التعبير ، وبراعة التصوير · كقوله يصف أطفاله بعد نكبـة القيـروان :

كَأَنَّنِي وَأَفْرَاخِي إِذَا اللَّيْلُ جَنَّنَا
وَبَاتَ الكَرَى يَجْفُو جُفُونَا وَيَطْرُقُ
حَمَائِمُ أَضْلَلْنَا الوُكُورَ فَضَمَّهَا
تَجَانُسُهَا حَتَّى تَرَاءَى المُفَرَّقِ
وَيَصْغُرُ جِسْمِي عَنْ جَمِيعِ احْتِضَانِهِمْ
فَيَتْبُتُ ذَا فِيهِ وَذَا عَنْهُ يَزْهَقُ
كَأَنَّهُمُ لَمْ يَسْكُنُوا ظِلَّ نِعْمَةٍ
لَهَا بَهْجَةٌ مِلْءُ العُيُونِ وَرَوْنَقُ

وكقوله من قصيدة طويلة وقد وفد على الاندلس :

مَطَلَ اللَّيْلُ بِوَعْدِ الفَلَقِ
وَتَشَكَّى النَّجْمُ طُولَ الأَرَقِ
ضَرَبَتْ رِيحُ الصَّبَا مِسْكَ الدُّجَى
فَاسْتَفَادَ الرَّوْضُ طِيبَ العَبَقِ
وَأَلاَحَ الفَجْرُ خَدًّا خَجِلاً
جَالَ مِنْ رَشْحِ النَّدَى فِي عَرَقِ
جَاوَزَ اللَّيْلَ إِلَى أَنْجُمِهِ
فَتَسَاقَطْنَ سُقُوطَ الوَرَقِ
وَاسْتَفَاضَ الصُّبْحُ فِيهِ فَيْضَةً
أَيْقَنَ النَّجْمُ لَهَا بِالغَرَقِ
فَانْجَلَى ذَاكَ السَّنَى عَنْ حَلَكٍ
وَانْمَحَى ذَاكَ الدُّجَى عَنْ شَفَقِ

بِأبِي بَعْدَ الكَرَى طَيْفٌ سَرَى
طَارِقاً عَنْ سَكَنٍ لَمْ يَطْرُقِ
وَتَجَلَّى وَجْهُهُ عَنْ شَعَرٍ
فَتَجَلَّى فَلَقٌ عَنْ غَسَقِ
نَهَبَ الصُّبْحُ دُجَى لَيْلَتِهِ
فَحَبَا الخَدَّ بِبَعْضِ الشَّفَقِ

وكقوله من قصيد يتحسر فيه على القيروان ويبكي زمانه :

أيَا قَيْرَوَانُ وَدَدْتُ أنِّيَ طَائِرٌ
فَأرَاكِ رُؤْيَةَ بَاحِثٍ مُتَأمِّلِ
يَا لَوْ شَهِدْتُ إذاً رَأيْتُكَ فِي الكَرَى
كَيْفَ ارْتِجَاعُ صِبَايَ بَعْدَ تَكَهُّلِ ؟
لاَ كَثْرَةُ الإحْسَانِ تُنْسِي حَسْرَتِي
هَيْهَاتَ تَذْهَبُ عِلَّتِي بِتَعَلُّلِ
لَوْ كُنْتُ أعْلَمُ أنَّ آخِرَ عَهْدِهِمْ
يَوْمَ الرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أفْعَلِ !

ومن نثر ابن شرف ما ورد فى المقامة الاولى التى استعرض فيها حسنات الشعراء المشهورين على اختلاف أزمانهم :

« وأما بشار بن برد فاول المحدثين ، وآخر المخضرمين ، وممن لحق بالدولتين • عاشق سمع ، وشاعر جمع • شعره ينفق عند ربات الحجال ، وعند فحول الرجال • فهو يلين حتى يستعطف ، ويقوى حتى يستنكف ، وقد طال عمره ، وكثره شعره وطما بحره ، وانتشر فى البلاد ذكره •• »

أبو الحسن على الحصـــرى

هو ابن خالة ابى اسحاق ابراهيم الحصرى صاحب كتـــاب « زهـــر الآداب »

ولد بالقيروان سنة 420 من أسرة عربيـــة يتصل نسبهـــا بعقبـــة بن نافع الفهرى •

حفظ القرآن رواية ودراية ، ودرس فن القراآت ، وعلـــوم الـــدين والعربية بالاضافة الى فنون الشعر والنثر • وقـــد اصيب منـــذ صبـــاه بفقد بصره ، فكان يتسلى عن ذلك بما عوضه الله من نفاذ البصيرة ، وحسن الادراك ، وسداد الرأى ، كما يقول :

وَقَـالُوا قَـدْ عَـمَيْـتَ فَقُلْتُ كَـلاّ
فَـإنِّـي اليَـوْمَ أبْصَـرُ مِـنْ بَصِيـرِ
سَـوَادُ العَيْـنِ زَادَ سَـوَادَ قَلْبِـي
لِيَجْتَمِعَـا عَـلَى فَهْـمِ الأُمُـورِ

وكان الحصرى في مذهبه العقائدى شديد التمسك بالسنة ، والانكار على الشيعة والرافضة ، يؤيد ذلك ما ورد فى مقدمة ديوانه :

« ولا تسمع العاوية في حديث معاوية ، وأعرض عمن حدث بمـــا بينهم حدث ، قد سبق القضاء بصنيعهم ، وقد غفر الله لجميعهم ، وعلم سيرتهم وسريرتهم • وتبا لمن رفض ، فما رفع ولا خفض • »

ولما نكبت القيروان بفتنة الشيعة ، وتخريب الهلاليـــين ، انتقـــل الحصرى الى الاندلس ، فنال بشعره حظوة لدى ملـــوك الطوائف ، ولاسيما المعتمد بن عباد ملك اشبيلية الذى مدحه بأبلغ الشعر ، فنال جزيل عطائه •

ولكن رغم ما لاقاه بالاندلس من كرم الوفادة ، فان فاجعة القيروان لم تمح من ذاكرته ، وان حنينه الى أهل وده ببلده المنكوب لم ينقطع ، فهو يقول :

يَا أهْلَ وِدِّيَ لاَ وَاللَّهِ مَا انْتَكَثَتْ
عِنْدِي عُهُودٌ وَلاَ ضَاقَتْ مَوَدَّاتُ
لَئِنْ بَعُدْتُمْ وَحَالَ البَحْرُ دُنَكُمُ
فَبَيْنَ أرْوَاحِنَا فِي النَّومِ زَوْرَاتُ
مَا نِمْتُ إلاَّ لِكَيْ ألْقَى خَيَالَكُمُ
وَأيْنَ مِنْ نَازِحِ الاَوْطَانِ نَوْمَاتُ ؟

ثم يلتمس لنفسه العذر فى نزوحه عن وطنه فيقول :

لَوْلاَ رِيَاحُ «رِيَاحٍ» لمْ أكُ أمْتَطِي
ذَا الاَخْضَرَ الطَّامِي ، وَذَاكَ الاَحْوَصَا
وَطَنٌ بِغَيْرِ غِنًى أحَبُّ إلىَ الفَتَى
مِنْ غُرْبَةٍ تُغْنِيهِ إذْ لاَ مَخْلَصَا

وهكذا برع الحصرى فى الشعر وافتن فيه ، فطار صيته ، وسار شعره .

قال ابن بسام فى الذخيرة :

« كان الحصرى بحر براعة ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الاندلس فى منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب القيروان ، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق ، معمور الطريق ، فتهادته ملوك طوائفها تهادى الرياض للنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار فى الأنس المقيم »

وقال فيه الحميدى بجذوة المقتبس :

« شاعر اديب ، رخيم الشعر ، حديد الهجو .. »

ومن أشهر انتاجه الادبي في الشعر ديوانه « اقتراح القريح ، واجتراح الجريح » الذى جمع فيه مرثياته في ولده عبد الغنى مرتبة على حروف الهجاء ، بأن جعل لكل مرثية منها قافية ، وهى تعبر عن مدى لوعته وأساه لهذا الخطب الذى حل به ، فأقض مضجعه ، وكدر صفوه . كقوله :

اذْهَبْ لَكَ اللَّهُ جَارُ وَجَنَّةُ الخُلْدِ دَارُ
اذْهَبْ بِحُسْنِ عَزَائِي فَلَيْسَ عَنْكَ اصْطِبَارُ
حَلاَلُ صَبْرِي حَرَامٌ وَسِرُّ ثُكْلِي جِهَارُ
يَا قُرَّةَ العَيْنِ مَالِي - حَتَّى أَرَاكَ - قَرَارُ
ذَا الأُنْسُ بَعْدَكَ وَحْشٌ وَذَا المَغَانِي قِفَارُ
نَهَارُ ثُكْلِكَ لَيْلٌ لاَ كَانَ ذَاكَ النَّهَارُ
وَكَيْفَ مُتَّ وَلَمْ يَشْمَلِ النُّجُومَ انْكِدَارُ
وَلَمْ تُسَيَّرْ جِبَالٌ وَلَمْ تُعَطَّلْ عِشَارُ
وَهْيَ القِيَامَةُ قَامَتْ فَعِبْرَةٌ وَاعْتِبَارُ

ثم « ديوان المعشرات » وهو مجموعة من القصائد اتحد موضوعها فى النسيب ، وتحتوى كل قصيدة على عشرة أبيات مبدوءة بحرف من أحرف الهجاء ومقفاة بنفس الحرف الذى بدئت به كقوله :

وَفَتَنِي دُمُوعُ العَيْنِ وَالصَّبْرُ خَانَنِي
فَتَجَرَّعْتُ فِي حُبِّي لَكَ المُرَّ وَالحُلْوَا

وَضِقْتُ بِهَذَا الحُبِّ ضَرْعاً وَحِيلَةً
فَحَتَّى مَتَى أشْكُو وَلاَ تَنْفَعُ الشَّكْوَى؟
وَشَى عِنْدَكِ الوَاشُون بِي فَهَجَرْتِنِي
وَحَمَّلْتِنِي فِي الحُبِّ مَا لَمْ أكُنْ أقْوَى

ومن أشهر قصائد الحصرى قصيد رائع فى معانيه ومبانيه وقد عارضه كثير من الشعراء فى المشرق والمغرب فلم يبلغوا شأوه وهو :

يا ليلُ الصَّبُّ متَى غَدُهُ   أقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ ؟
رَقَدَ السُّمَّارُ فارَّقَهُ   أسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاه النَّجْم ورقَّ لَهُ   مِمَّا يَرْعَاه ويَرْصُدُه
كَلِفٌ بِغَزَال ذي هَيَف   خَوْفُ الوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ
نَصَبَتْ عينَايَ لَه شَرَكاً   فِي النَّوْمِ فعَزَّ تَصَيُّدُهُ
صَنَمٌ للفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ   أهْوَاهُ ولا أتَعَبَّدُهُ
يَا مَنْ جَحَدَتْ عَيْنَاهُ دمِي
وَعَلَى خَدَّيْه تَوَرُّدُه
خدَّاك قَد اعْتَرفَا بِدَمِي   فَعَلامَ جفُونُك تجْحَدُهُ
إنِّي لأُعِيذُك من قَتْلِي   وأظُنُّك لا تتعمَّدُهُ
بِاللهِ هَب المشْتَاقَ كَرَى   فَلَعَلَّ خيَالَك يُسْعِدُهُ

الخ...

منظر عـــام لمدينة القيروان الخالـدة



الفهـــرس

أهم المراجع

رياض النفوس : ابو بكر المالكي
معالم الايمان : عبد العزيز الدباغ
المغرب ذكر بلاد افريقية والمغرب : ابو عبيد الله البكري
المؤنس في اخبار افريقية وتونس : ابن ابي دينار
الذخيرة : ابن بسام
معجم الادباء : ياقوت
المقدمة : ابن خلدون
الكامل : ابن الاثير
وفيات الاعيان : ابن خلكان
طبقات علماء افريقية ابو العرب
اتحاف اهل الزمان : ابن ابي الضياف
عيون الانباء في طبقات الاطباء : ابن ابي اصيبعة
تاريخ الفقه الاسلامي : الحجوي
محاضرات تاريخ الامم الاسلامية : الخضري
الديباج : ابن فرحون
ظهر الاسلام : احمد امين
العمدة : ابن رشيق
قراضة الذهب : ابن رشيق
بساط العقيق : ح ـ ح عبد الوهاب
المنتخب المدرسي : ح ـ ح ـ عبد الوهاب
حياة القيروان وموقف ابن رشيق
منها الدكتور ياغي
ابو الحسن الحصري : المرزوقي ـ بن يحي
حسن البيان محمد النيفر
عنوان الاريب : محمد النيفر
بين الآثار الاسلامية : نشريات ومجلات الخ
بين الآثار الاسلامية ـ الندوة : نشريات ومجلات

انتهى طبعه في جويليـة 1964

طبع كتابـة الدولـة للشؤون الثقافيـة

والارشـــاد



ة الثقافية بالقيروان